

المواجهة



قصة حياتي



أحمد رفيق
الاستاذ

السنويز



المواجعة

قصة حياتي

لأستاذ الجيل

أحمد لطفي السيد

التنوير



مؤسسة المشرفة للنشر والكتاب

١٩٩٣

الفصل الأول

نشأتى الأولى

نشأت فى أسرة مصرية صميمية لا تعرف لها إلا النوص المصرى ، ولا تعتز إلا بالمصرية ، ولا تنتمى إلا الى مصر .. ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور .. وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفى له الرقى والمجد .

وعد ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ م بقرية « برقين » من أعمالي مركز السنبلالوين بمديرية الدقهلية . وهى قرية صغيرة كان تعدادها فى ذلك الحين يبلغ مائة نفس . ويشاع بين أهل الريف ان اسمها « النزلة » وربما سميت باسم « برقين » الفلسطينية . وقد تشاعف سكانها ، فأصبح عددهم الآن نحو المئتين نفس . وهم زراع ماهررون ، مشهورون بالمجد والنشاط والاستقامة ، وقد اعتادوا أن ينطقوا بالقاف « جافا » ، والجيم جيما معطشة كسائر أهالى مركز السنبلالوين ، وما زالت هذه اللهجة تغلب علىى فى حديثى .

وكان والدى « السيد باشا أبو على » عمدة هذه القرية . كوالده « على أبو سيد أحمد » . وقد كان يجيد حفظ القرآن الكريم كله . وعرف بشخصيته الهيبية ، وقوة شكيمته ، وعدالته فى معاملته ، وعطفه على أهل قريته وغيرهم . وأذكر أنه ما قسا يوما على ، ولا وجه الى كلمة نابية أو عسارة تؤلم نفسى ، بل

كان - طيب الله ثراه - عطوفا حكيما فى تربية أبنائه ، يعنى بالقدرة
الحسنة ، وحسن التوجيه والارشاد .

ولما بلغت الرابعة من عمري ، ادخلنى كتاب القرية ،
وكانت صاحبة سيدة تدعى « الشيخة فاطمة » . فمكثت فيه ست
سنوات تعلمت فيها القراءة والكتابة ، وحفظت القرآن كله ،
وكننت أجلس مع زملائى على الحصير ، ونصنع الحبر بأيدينا . والى
هذه السيدة يرجع فضل تنشئتى الأولى فى تلك السنين .

ضرب العمدة .. والأعيان ؛

وقد كنت فى العاشرة حينما أتممت حفظ القرآن فى هذا
الكتاب ، فاشتري لى والدى « مهرة » من بادية الشام لم تألف رؤية
قطار السكة الحديدية . فكننت أركبها للنزهة ولقضاء بعض الأعمال .
وقد نصحنى والدى بالابتعاد عن السكة الحديدية حتى لا يمسنى
مكروه . وذات يوم امتطيت المهرة وذهبت الى عزبة لنا فى طرانيس
العرب . وفاتنى أن أعمل بنصيحة والدى ، فسرت بها على طريق
السكة الحديدية .. وبينما أنا سائر بها ، اذ فاجأنى القطار فوثبت
من فوقها وتركتها وحدها فجرت بسرعة حتى عادت الى برقين . فذعر
أهلى ، وهاجت القرية ، وظن الجميع انى أصبت بمكروه . وكننت
وقتئذ وحيد والدى ، فزاد ذلك من اهتمامهم وقلقهم . وما كاد القطار
يقرب منهم حتى رأوا السائق يشير اليهم بمنديل أبيض فاطمأن
بالهم ، ثم أخبرهم السائق بما فعلت ، فبعثوا الى بحمار عدت
عليه الى بلدتى . غير انى خشيت أن يعاقبنى والدى ، فهربت خوفا
من « علقه » تصيينى . وجاء رجل من أهل القرية يدعى « عوض
بدران » يهنئه بسلامتى ويقول له : « بركة عيشك يا ابو على » .
وهو يعنى « الحمد لله على السلامة » ؛

وهى بى الى والدى وأنا خائف أترقب ، ولكنه - كعادته
معى رحمه الله - ربت على كتنفى قائلا : « لا تخالف امرى يا ولدى ،
ولا تسر مرة أخرى على السكة الحديد » . فآثر ذلك فى نفسى .
وازددت اعجابا به وحبا له .

وعلى ذكر « العلقه » اذكر ان الضرب فى ذلك الزمان كان
مباحا ، حتى ضرب العمدة والأعيان ؛ وكان هذا بعض ما يحدث
فى القرى المصرية من القسوة والاستبداد . . . وقد رأيت بنفسى غير
مرة ، ان كان لوالدى صديق يدعى أحمد كامل بك ، وكان مفتش
« تفتيش شاوى » . فكنت - وأنا بمدرسة المنصورة - اذهب الى
بيته يوم الجمعة ، فأرى حوش التفتيش مرشوشا ، والبيك المفتش
قاعدا فى صدره وقد وقف اثنان من « القواسه » يحملان الكرياج
و « الفلقة » لضرب العمدة الذين يتأخر اهالى قراهم فى دفع
الايجار . وكانت هذه طريقتهم فى ذلك الحين . . . فأنظر كيف
كانت الحال بالأمس ، وكيف هى اليوم ؟

نوبار باشا : مسلم !

بعد أن أتممت حفظ القرآن الكريم رغب والدى فى أن يبعثنى
للدراسته فى الأزهر ، وصادف فى ذلك الوقت أن جاء يتغدى عندنا
ابراهيم باشا أدهم - مدير الدقهلية سابقا - فدخلت لتحيته ، فسأل
والدى الى أين يبعث بى للدراسته ، فأجاب : « الى الأزهر الشريف
ان شاء الله » . . . فأشار عليه أن يبعث بى الى مدرسة المنصورة
الابتدائية ، وكانت المدرسة الحكومية الوحيدة فى الدقهلية
كلها . وقد عين المرحوم أمين سامى باشا ناظرا لها . وكان
معروفا بالدقة والنظام والشدة وعدم التسامح فى أى
تقصير يبدو من أحد التلاميذ ، ومع ذلك فقد كنا نحبه ونحترمه
ونشعر بأبوته الرحيمة . . . وكان بالمدرسة قسم داخلى ، فالتحقت

بالسنة الثانية بامتحان . لأننى كنت عدا حفظى للقرآن الكريم -
اعرف قواعد الحساب الأربعة ، و « سورة الفدان » من حراف
بنونا « المعلم حنين » وكان يلبس جبة وقطانا .

وانكر على سبيل الفكاهة أن أحدهم سأله يوما عن رئيس
الوزارة توبار باشا ، فقال له : « قول لى يا معلم حنين ..
توبار باشا مسلم ؟ » .

فأجابه خبثا أو بسلامة نية : « نعم .. مسلم موحد
بآله » !!

العدس والفول .. فقط !

وكانت سنة ١٨٨٢ م حينما التحقت بمدرسة المنصورة
الابتدائية ، ولما اختلطت بزملائى التلاميذ شعرت بعد أيام بشيء
من القلق ، لأنهم كانوا يضحكون عنى حينما انطلق القاف جافا
كأهل بلدتى ! .. هذا الى أن الضرب والحبس فى « الزقزانة » كانا
من أنواع العقاب فى هذه المدرسة ، وقد رأيت فى الأيام الأولى تلميذا
وضعت رجلاه فى الحديد لأنه ارتكب ذنبا . وكانت روح الجنسية
هى السائدة على نظام المدارس فى ذلك الحين .. وكنا نخرج كل
يوم جمعة « طوابير » نطوف فى شوارع المدينة ثم نعود الى عنابرنا
.. وكانت عيشة المدرسة عيشة شظف وخشونة . وقد كانوا
فى وجبة القطور يقدمون لكل تلميذ رغيفا فقط ، وعليه أن يشتري
من جيبه الخاص ما يأتد به من جبن أو حلوة . وكان العدس
أو الفول هو وجبة الغداء والعشاء . وفى بعض أيام الأسبوع
يقدمون لنا شيئا من اللحم والفاكهة .

وجاء والدى كعادته لزيارتى يوم الجمعة ، فأبدت له أسباب
تعبى وضيقى من هذه المدرسة ، وقلت : « انتى غير مبسوط : وأخشى

أن أنسى فيها القرآن الكريم فيعاقبني الله بالنسيان ، وقد قال تعالى
(وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) . . . فابتسم
رحمه الله وقال لى : « وأنت تنسى القرآن ليه ؟ » اقرأ كل يوم جزءاً
منه وأنت لا تنساه ، وخليك فى المدرسة . فاستمتعت لنصيحة
والدى ، ومكثت بالمدرسة . وقد حبيب الى البقاء فيها أستاذ اللغة
العربية « سيد أفندى محمد » ، وكان مشهوراً بالمقدرة والتفوق فى
تربيته وتعليمه . وكان تلاميذه أقوى زملائهم فى اللغة العربية ،
وعلى يديه نبغ كثيرون .

من المنصورة . . الى الخديوية !

أمضيت ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية ، وامتت
تعليمى الابتدائى فى سنة ١٨٨٥ م . ولم تكن شهادة الابتدائية
ولا البكالوريا قد وجسدتا بعد ، بل كان الانتقال من مرحلة الى
أخرى بالنجاح فى امتحان المدرسة . وكان بمدرسة المنصورة
فرقة تجهيزية واحدة فألغيت فى ذلك العام ، واضطرت للسفر
الى مصر لالتحق بالمدرسة الخديوية .

ولقد أصبت نعمة كبرى فى هذه المدرسة بصحبة صديقى وأخى
عبد العزيز فهمى ، من أول يوم التقيت به فى عنبر المدرسة . وذلك
فى مناقشة أثيرت بيننا وبين بعض الطلبة فى النحو ، فاتفق رايه
ورأى ضد الآخرين ، ومن تلك الليلة صرنا صديقين حميمين ، ولا
أذكر أن أحدهما قصر فى حق صديقه أو قال عنه ما يسوؤه ، أو وجه
اليه كلمة تؤله ، ولو على سبيل المزاح !

ولما انتظمنا فى المدرسة ، رتبونا بالطول ، فقصار القسامة
فى السنة الأولى ، والأطول منهم فى السنة الثانية . . وهكذا . وكان
وزير المعارف يومئذ عبد الرحمن رشدى باشا ، ووكيلها يعقوب
باشا أرتين وناظر المدرسة صادق بك شتن . وكان هذا الناظر

معروفا بحبه لأهل البيت ، وإذا وبخ أحدا قال له : « يا يزيد ! »
وقد عز على صديقى عبد العزيز فهمى باشا وقد أمضى سنة فى
تجهيزية مدرسة طنطا - أن يكون تلميذا فى السنة الأولى ، فاحتج
على هذا الوضع ، فقبل احتجاجه بصعوبة ونقل الى السنة
الثانية . ولما لم تكن شهادة البكالوريا قد وجدت فى ذلك الحين ، فقد
شاء عبد العزيز فهمى وهو فى السنة الثالثة أن ينتقل الى مدرسة
الحقوق ، فذاكر فى الاجازة لامتحان القبول بها ونجح . أما أنا
فبقيت فى الخديوية الى أن حصلت على البكالوريا سنة ١٨٨٩ م
وكان نظام الشهادات العامة قد وضع قبل ذلك بعام .

عصر « الفتوات » !

وفى مدرسة الخديوية عرفت عيشة الترف بالنسبة لمدرسة
المنصورة ، فكنا نأكل بيضا ولحما وحلوا وفاكهة كل يوم . ولم تكن
نفقاتها تزيد على نفقات مدرسة المنصورة . وكانت فى سراى مصطفى
باشا بدرب الجماميز ، هى ومدرسة الترجمة والمهندسخانة ووزارة
المعارف . وكان طلبة المهندسخانة يختلفون عنا بزيهم العسكرى
الكامل ، ويحملون الى جانبهم سيوفا ، فكانوا يشيعون بمنظرهم
الرهبى فى نفوس الطلبة الآخرين وبخاصة الغرباء . وكان مما
يخيفنى بالقاهرة حوادث « الفتوات » فى ذلك الزمان . فقد كان فى كل
حارة عصابة على رأسها « فتوة » . وكثيرا ما كانت تحدث
معارك دامية بين هذه العصابات . وقد امتدت عدوى الفتوة الى
الطلبة أنفسهم حتى ظهر بيننا طالب « فتوة » يدعى « منصور »
كان يعلم زملائه « التحطيب » . ولهذا كنت أؤثر البقاء فى المدرسة
أيام العطلة الأسبوعية . وقد مكثت فى أول عهدى بالقاهرة
ثلاثة أشهر لا أخرج من الخديوية ، قرأت فيها كتاب « أصل الانسان »
لداروين ، الذى ترجمه المرحوم « شبلى شميل » . وحفظت كثيرا
من الملاحظات وأشعار بعض كبار الشعراء ، وكان من مدرسى اللغة

العربية فى هذه المدرسة : الشيخ حسين والى ، والشيخ محمد حسنين البولاقي والد المرحوم أحمد حسنين باشا . وكنا وقتئذ نقرأ كتابا مطولا فى النحو مؤلف يدعى الشيخ محمود العالم .

وكانت مدرسة الخديوية تجرى كل شهر اختبارا لتلامذتها ، فرغب تلامذة البكالوريا أن تعفيهم المدرسة من الاختبارات الشهرية لينصرفوا الى المذاكرة لامتحان العام ، وأجمع رأيهم على أن يطلبوا الى وزير المعارف على باشا مبارك اعفاءهم منها ، واختارونى للذهاب لمقابلته ، فذهبت اليه ، وكان من حادثه أن يضع سبورة فى مكتبه لاختبار كل من يتقدم اليه من الطلبة فى حاجة يريدونها ، ولا يجيبه الى حاجته الا اذا أجابه اجابة صحيحة فيما يختبره فيه من المسائل الرياضية أو العلمية . فلما مثلت بين يديه طلب منى أن أقف أمام السبورة لأبرهن على النظرية الهندسية التى حاصلها « أن مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربعي الضلعين الآخرين » . فأثبتها أمامه ، فأجابنى الى الرغبة التى أوفدنى اليه زملائى من أجلها . وقد كان رحمه الله أبا للتلاميذ ، محبا لهم ، عطوفا عليهم . وكثيرا ما كان يختلط بهم فى وقت الفراغ ، ويقسح لهم منزله للزيارة . وكان منزله فى الحليمية الجديدة بشوارع « نور الظلام » مقصدا لأهل العلم وطلابه .

الى مدرسة الحقوق

وقد كنت فى التعليم الثانوى متوسطا ، فلم أكن من المتقدمين ولا من المتأخرين . على أنى كنت متفوقا فى العلوم العربية والرياضيات حتى لفت ذلك صابر باشا صبرى ، وأحمد كمال بك ، فى اللجنة الشفوية لامتحان الرياضة فى البكالوريا ، فتصحانى أن أدخل المهندسخانة ، فأجبتهما الى ذلك ، غير انى قرأت فى الاجازة

أن المهندس خانة تقبل ساقطى البكالوريا فلم أجد من كرامتى أن ألتحق بهذه المدرسة . وتغلب فى نفسى نزق الشباب والعزة الكاذبة على على المريد أن يكون حيا له كالجثة بين يدي مفسلها يقلبها كيفما شاء . حبى للرياضيات ، فقلت لأبى : « أنا لا أرغب فى المهندس خانة ، ولا أعرف أية مدرسة توافقنى ، وأجيدنى فى حيرة من ذلك » . فقال والدى : « علينا بالقرعة » . فأجريتاهما فخرجت مرتين على مدرسة الحقوق !

التحقت بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ م . وكانت المدرسة وقتذاك يمكن أن تسمى « كلية حقوق » و « كلية آداب » معا فقد كان الطلبة يدرسون فيها الى جانب العلوم القانونية علوما أدبية كآداب اللغة العربية ، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى ، وتفسير القرآن الكريم ، وآداب البحث والمناظرة ، والمنطق . وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات . وكان وكيلها عمر لطفى بك ، وكان يدرس لنا قانون العقوبات ومن أساتذتها مسيو تستو مدرس القانون المدنى والأستاذ شارل ولوزينا والشيخ حسونة النواوى الذى تولى بعد ذلك مشيخة الأزهر ، وحفنى ناصف بك وسليمان بك محمد . وكنت فى ذلك الحين أسكن فى حارة (عمر شاه) التى يسكن بها الشيخ حسونة النواوى ، وكنت أتردد على منزله ، وكثيرا ما يبعث الى لأقرا له درس الفقه الذى كان يلقيه فى الأزهر فى بكرة الغد .

وفى مدرسة الحقوق عرفنى الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل ، وكانا مع الشيخ عبد الكريم سليمان فى لجنة امتحان العلوم العربية ، واذكر أنه فى لجنة امتحان السنة الثالثة طلب منا أن نكتب فى موضوع « حق الحكومة فى معاقبة الجانى » ، فتناولت الموضوع من جميع نواحيه ، فكتبت المذاهب الأربعة التى أنشأها علماء الجنايات فى شروحهم على قانون

العقوبات ، ثم تفشت كل مذهب منها ، وخلصت في النهاية الى أن الحكومة ليس لها حق معاقبة الجاني ، لأن كل حكومة نشأت بالقوة ، والقوة لا تعطى الحق وانما الذي يعطيه هو العقد فقط ، وليس هناك أي عقد بين أية حكومة وبين أمتها !

ولما خرجنا من الامتحان ، ونكرت ذلك لزميني محمود عبيد الغفار ، أسف جدا لما فعلت ، وقال لي : « يا لطفي أنا مش عارف فاسفتك دي حاتوايني فين ! »

وقد ألقى في روعي اني اخطأت في هذا العمل ، ووثقت اني سأخذ ، صفرا ، على هذا الجواب ، ولكن حينما دخلت الامتحان الشفهي وجلست امام اللجنة قال لي الشيخ محمد عبيد : « اني أهنتك بما كتبت وقد أعطيتك أعلى درجة ، لا على ثورتك على الحكومات ، ولكن على الانشاء ! »

وأظن أن هذه الكلمة هي التي شجعتني على أن أنشئ فيما بعد ، مجلة التشريع ، بالاشتراك مع المغفور لهم اسماعيل صدقي (باشا) ، واسماعيل الحكيم (بك) ، وعبد الهادي الجندي (بك) ، وعبد الخالق ثروت (باشا) ومحمود عبد الغفار .

ولقد هسويت منذ كنت طالبا في الحقوق الكتابة في الصحف ، فعاونت في جريدة (المؤيد) بترجمة تلغرافاتها الخارجية ، عندما كان الأستاذ محمد مسعود بك مريضا .

معركة لغرية !

وأذكر أن المرحوم الشيخ حمزة فتح الله اللغوي المعروف استشهد يوما على صرف اسم « عمر » ببیت هو :

الى عمـر بن أبى غبـسة

بيليل يهدى ربحلا رجوفا

فاستنكر ذلك اللغوى الكبير الشيخ محمد الشنقيطى هو
وجماعته ومنهم الشيخ البكرى ، وأحمد زكى باشا . وكتب
الشنقيطى مقالا فى جريدة « المقطم » يتحدث فيها الشيخ
حمزة فتح الله ، وينفى وجوده فى الشعر العربى ، ويقول :
« لو دلتنى أحد على مكان هذا البيت واسم قائله لأهديت اليه عشر
نسخ من لسان العرب » . وكان هذا الكتاب قد طبع حديثا ، فرد
عليه الشيخ حسن الطويل . . وكان أستاذا بدار العلوم ، فقال
له ان صحة البيت هكذا :

الى عمـرين الى غبـسة

فيليل يهدى ربحلا رجوفا

وان قائله صخر الهذلى ، وأنه فى صفحة كذا من
لسان العرب ، وطالب الشنقيطى بالجائزة . فكتب الشيخ الشنقيطى
يقول : « وقف لنا الشيخ حسن الطويل بين السماطين
يطالبنا بالجائزة كأنما أعدنا الجائزة لمن يخطئ لا لمن يصيب » ،
فكتب الطويل يقول :

« روى البيت خطأ فصحناه ، وزيد الصحيح هو
عينه زيد المريض » .

فكتب أحمد زكى باشا ينصر الشيخ الشنقيطى على الشيخ
الطويل . وفى ذلك الحين قابلت الشيخ الطويل ومعه سلطان بك
محمد ، فسلمت عليهما ، فقال الشيخ الطويل : « لماذا لم تنصرنى ؟ »
فكتبت رسالة فى « المقطم » نظرت فيها الى النزاع من ناحيته
القانونية ، وانتصرت فيها للشيخ الطويل وقلت انه يستحق
الجائزة ولكن الشنقيطى أبى أن يدفعها ! . .

فى استانبول

وفى صيف سنة ١٨٩٢ م سافرت الى استانبول ، وكنت
ما ازال طالبا بالحقوق ، فالتقيت بزميلى وصديقى المغفور
له اسماعيل صدقى (باشا) . وكان الخديو عباس حلمى
الثانى يزور وقتئذ العاصمة العثمانية ، فكنا فيها نحن الاثنين كأنما
نمثل الطلبة المصريين فى الاحتفال بالخديو .

وذات يوم كنت سائرا مع « اسماعيل صدقى » نقتزى على
« كوبرى غلطة » . وكان به شئ من القم والتهدم ، فأخذ
« اسماعيل » يتساءل : أين ميزانية الدولة ، وينتقد بطء التعمير
والاصلاح . ويظهر أنه كان يسير وراءنا - دون أن نشعر -
جاسوس عثمانى ، كما كانت الحال فى ذلك الزمان ، فأبلغ
رؤسائه هذا الانتقاد .

وبعد بضعة أيام ركبنا معا حصانين ، وذهبنا للتفرج فى
« بيوكدره » ولما عدنا الى المرقأ لتركب « الحميدية » الى
استانبول قال لى اسماعيل صدقى : « أرجو أن تنتظرتى
حتى أمر بأمين باشا » فانتظرتة على ضفة البوسفور حتى عاد من
زيارته ، فوجدته ممتقع اللون واجما حزينا ، فسألته عن أمره .
فأجاب : « سأقول لك متى دخلت المركب » . ثم قال لى ونحن فى
« الحميدية » : « ان أمين باشا كان فى «المابين» (المعية السنية)
فسمع من رجاله أن شابا مصريا اسمه اسماعيل صدقى تكلم ضد
الدولة العلية وسياستها » . وكان جزاء من يثبت عليه
ذلك أن ينفى فى بغداد حتى يموت ولكن أمين باشا
أجابهم :

« ان هذا الشاب الذى تعنونه ليس غير تلميذ صغير فى المدرسة
لا يعبأ بكلامه » .

فقالوا له : « اذن ما دام يهيك ، فليسافر في أول سفينة تقوم
من استانبول » • فسافر اسماعيل صدقي في صباح اليوم التالي .
ووصل الى مصر في ١٢ يوما •

أما أنا فبقيت في استانبول مدة اجازة الصيف اتلمذ على
جمال الدين الأفغانى •

الفصل الثانى

اشتغالى بالسياسة

تتلمذت على جمال الدين ؟

فى اليوم التالى لسفر اسماعيل صدقى (باشا) - وكان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٢ - مررت بأحد مقامى الاستانة . فلقيت فيها بعض المصريين ، وفيهم سعد زغلول بك (باشا) وكان وقتئذ قاضيا بالاستئناف ، والشيخ على يوسف ، وحفى بك ناصف ، وقد تأهبوا لزيارة السيد جمال الدين الأفغانى ، فصحبتهم الى منزله ، وكنت أعرف طرفا من حياته ، ولكنى لم أكن قد اجتمعت به من قبل . وكان قد ذاع صيته فى الشرق الاسلامى كمصلح دينى ، وفيلسوف جليل ، وسياسى خطير ، ونزل مصر سنة ١٨٧١ ، وأقام بها حتى أواخر سنة ١٨٧٩ ، وعلى يديه نبغت طائفة من العلماء وكبار الكتاب فى القطر المصرى ، وقد رحل الى الهند وايران والعراق وأوربا ، ثم أقام فى أواخر حياته بالاستانة ، فنزل ضيفا على السلطان عبد الحميد فى منزله يدعى (المسافرخانه) موفور العيش ووسائل الاطمئنان ، وقد قوبل من العلماء ورجال السياسة الأتراك بالحفاوة والاكرام . وكان يخرج عصر كل يوم للرياضة والنزهة فى أطراف المدينة على عربة سلطانية خاصة .

ولما ذهبت اليه مع اخوانى ، ألفيته رجلا مهيب الطلعة قوى الشخصية لا نظير له بين أهل عصره فى علمه ونكاته وألمعيته .

وكان أبيض اللون ، ربيعة ، معتلىء البنيسة ، أسود العينين ،
نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، جذاب
المنظر . يلبس عمامة وجبسة وسراويل على زى علماء
الاستانة .

وأظهر ما رأيته فيه سعة الاطلاع ، وقوة الحجة
والاقتناع ، فكان يستوى فى مجلسه الطالب مثلى وأساتذته
الحاضرون .

وفى اليوم التالى ذكرت لسعد زغلول رغبتي فى التلمذة
على السيد جمال الدين ، وسألته عن السبيل التى أسلكها لأكون
تلميذا له ، فأجاب سعد :

— اذهب اليه ، واطلب منه ذلك .

فقصدت اليه ، فما كدت أقبل عليه حتى قام لتحيتي
كالمعتاد ، فقلت له :

— أنا لست زائرا ، ولكنى تلميذ

فسر رحمه الله بذلك ، وأخذ على عهدا بأن ألزمه طول اقامتى
بالاستانة . . . وقد فعلت . .

اشرب يا ولدى . . اشرب !

وأهم ما أظن انى انتفعت به من السيد جمال الدين فى تلك
المدة أنه وسع فى نفسى آفاق التفكير ، وهدانى الى أن المرء
لا يستطيع أن يربى نفسه الا اذا حاسبها آخر كل يوم
على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وما خطر
لها من خاطر .

وكان جمال الدين ميالا للسياسة يتحدث عنها كثيرا ،
وكانه يريد أن يقيم في الشرق دولة تضارع انجلترا في
الغرب •

وكان رحمه الله شديد النقمة على الانجليز لسياستهم في
البلاد الاسلامية ، وهدمهم لدول الاسلام ، ولما وجدده من
اعتداءاتهم عليه ، واخراجهم له من الهند ، ودهسهم له في
مصر حتى اخرج منها في عهد الخديو توفيق • وهو الذي
كان يتمتع في عهد الخديو اسماعيل بكرم الضيافة المصرية ،
وكان يجري له راتب شهري •• وقد روى لى قصة سعيه
الحثيث في ذلك العهد للافراج عن لطيف سليم باشا ومن معه
من الحبس حينما قاموا بالثورة العسكرية في مدة الوزارة
المختلطة •

وكان رحمه الله يقدر تلميذه « الشيخ محمد عبده » ، واذا
ذكر اسمه في مجلسه اعرب عن احترامه له ، وتقديره لذكائه
وعلمه • وكان يعيب على المصريين تخاذلهم وتفرقتهم ونزاعهم
وسط ما يلم بهم من الحوادث الجسام •• ويردد قوله : « اتفق
المصريون على الا يتفقوا » •

وكان طيب الحديث ، لطيف المعشر ، حلو الفكاهة • واذكر
من حوادث مزاحه الطريف انه قدم لى يوما سيجارة ، فدخنها ،
فأعطاني الثانية ، فاعتذرت ، فقال لى :

... الا ترى أن الانسان منذ نشأته الى الآن يأكل ويشرب ،
ويلبس ، على خلاف في الصورة في العصور المتغيرة ، ولكن
الجوهر واحد •• فما الذى جد عليه حتى علا نفسه في القرنين

الأخيرين ، فاستكشف البخار والكهرباء ٠٠ الخ ٠٠ لا اظن
انه جدد عليه شيء الا شرب الدخان ٠٠٠ اشرب يا ولدى
اشرب ١٠٠ «

جمعية سرية لتحرير مصر !

اتممت الدراسة سنة ١٨٩٤ وحصلت على شهادة ليسانس
الحقوق ، فعينت فى صيف ذلك العام انا وجميع زملائى كتبة فى
النيابة بمرتب خمسة جنيهاً فى الشهر وكان تعيينى فى هذه
الوظيفة لأول مرة بالقاهرة ، ثم نقلت الى الاسكندرية ، فمكثت
بها اشهرًا ، عينت بعدها سكرتيرا للافوكاتو العمومى حسن باشا
عاصم ٠ ثم انتدبت معاونا للنيابة ، بينى سويف ٠ وسرنى ذلك ،
لأنى وجدت بها صديقى عبد العزيز فهمى (باشا) وكيل النيابة وقتئذ ٠
وفى سنة ١٨٩٦ عينت وكيلًا للنيابة بمرتب عشرة جنيهاً ٠
وكان صديقى عبد العزيز ما زال بها أيضا ، فأقمنا معا فى هذه
المدينة ٠ وكنا نفكر فى حالة مصر ، وما تعانيه من الاحتلال
البريطانى ٠ وفى ذلك العام أنشأنا جمعية سرية غرضها
« تحرير مصر » ٠

وكانت هذه الجمعية مؤلفة من : عبد العزيز فهمى ، وأحمد
طلعت رئيس النيابة (أحمد طلعت باشا فيما بعد) ، وحامد
رضوان وكيل النيابة ، ومحمد بدر الدين وكيل النيابة ، والدكتور
عبد الحليم حلمى ، وأنا ٠ ثم ضممنا اليها على بهجت
بك ، ومحمد عبد اللطيف الذى كان صيدليا بطنطا ٠

حزب وطنى برياسة الخديو :

وذات يوم كنت بالقاهرة بعد تأليف تلك الجمعية ، فالتقيت بمصطفى كامل ، فقال لى : « ان الخديو عباس يعلم كل شىء عن جمعيتكم السرية وأغراضها » وأظن أنه لا تفاقم بينها وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو » .

فأجبتة : « لا مانع عندى من ذلك » . وأبلغ مصطفى الخديو هذا القبول ، واستأذن لى فى مقابلة سيموه . وذهبت اليه ، فتحدث معى سيموه عن أغراض الحزب الذى يريد تأليفه ، وطلب منى أن أسافر الى سويسرا لكى أكتسب الجنسية السويسرية ، ثم أعود الى مصر لأحضر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى . والسبب فى اختيار سويسرا دون أية دولة ، أن التجنس بجنسيتها قريب المال لا يكلف الراغب فيه الا اقامة سنة واحدة بها .

وكان الخديو عباس يظن وقتئذ أن فرنسا تستطبع أن تأبى الدول على انجلترا لتجسروا عن مصر ، والذى أطمعه فى ذلك زيارة « المسيو ديلاونكل » النائب الفرنسى لسيموه ووجهه له بذلك .

وبعدما خرجت من مقابلة الخديو عباس ، اجتمعت أنا ومصطفى كامل وبعض زملائنا فى منزل محمد فريد ، وألقنا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو ، وأعضاؤها : مصطفى كامل وبعض زملائنا فى منزل محمد فريد ، وسعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان « والد أمين عثمان باشا » . وليبيب مصطفى (شقيق عثمان محرم باشا) ، وأنا . .

ومن طرائف ما يذكر عن هذا الحزب أن الخديو كان اسمه
بيننا : « الشيخ » ومصطفى كامل « أبو الفداء » ، وأنا « أبو
مسلم » . . . !

اقامتي في جنيف

سافرت بعد ذلك الى جنيف لاكتسب الجنسية السويسرية
حسب الاتفاق ، وكان معى كتابان من على بهجت بك الى
المستشرق « ماكس فان برشم » ، والأستاذ « نافيل » الأثرى
المعروف . فلما قابلت الأستاذ « ماكس » سهل لى استخراج
جواز الإقامة ، واسخلى ندوة الفنانين ، وكان مكلفا من
الحكومة الفرنسية بجمع الآثار الاسلامية فى مصر والشام
ودراستها ، ووضع مؤلف بها ، فأخذت اقضى معه وقتا فى
مساعدته على استجلاء معانى النقوش العربية التى جمعها
من الآثار . وأما السيور نافيل الذى كان مشهورا بعلاقاته
برجال السياسة فى سويسرا وفى الخارج ، فقد جاءنى
فى الفندق وبعد خمسة عشر يوما ، وجرى بينى وبينه حديث
طويل انتهى بقوله :

— لا تظن أن أوربا تساعدكم على انجلترا . . وأرى أن لا يحرر
مصر الا المصريون !

مع الشيخ عبده بجنيف

مكنت فى جنيف سنة ١٨٩٧ اقضى الأشهر الأولى فى الدراسة
وحضور بعض المحاضرات بالجامعة ، وأتلم « الشيش » فى أوقات
الفراغ حتى اقبل الصيف ، فجاءنى فيها الشيخ محمد عبده ،
وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، فلم أخبرهم بمهمتى السياسية . وكان

قاسم وقتئذ يؤلف كتاب « تحرير المرأة » ، فقرأ علينا قصصولا منه مدة اقامته بيننا • ثم سافر مع سعد زغلول من سويسرا ، وبقي معى الشيخ عبده • وكانت جامعة جنيف قد أعدت فصلا صيفيا لدراسة الآداب والفلسفة للحائزين على درجة الليسانس فدخلت فيه •• ولما ذكرت ذلك للشيخ محمد عبده أحب أن يحضر دروسه ، فقدمته الى مدير الجامعة باعتباره قاضيا فى الاستئناف واحد مديرى الأزهر ، فقبله بهذا الوصف فمكننا تتردد على هذه الدراسة •

والد محمد فريد بيكى

وانذكر اننى والشيخ محمد عبده فى جنيف ذهينا لزيارة محمد ثابت باشا الذى كان مهردارا للخديو اسماعيل - اى حامل اختام الخديو - وهو يساوى رئيس الديوان - وكان معه اثناء الزيارة أحمد فريد باشا والد محمد فريد ، وكان ناظرا للدائرة السنية ، ومن كبراء مصر المعدودين • فلما استقر بنا المقام أخذ فريد باشا يشكو ابنه الى الشيخ محمد عبده ، وييكى، وكان وقتئذ مريضا ، ويقول للشيخ •

- هل يصح يا سيدي الأستاذ أن يهزئنى محمد فريد فى آخر الزمن ، ويفتح دكان أفوكاتو (مكتب محام) ؟

وكان محمد فريد قبل ذلك وكيلًا للنياابة ، وحشدت واقعة شركات التلغرافات التى اتهم فيها الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، وقدم الى المحاكمة من أجل نشر هذه التلغرافات فى جريدته • وحضر محمد فريد الجلسة ، فبدرت منه الفاظ ضد الحكومة عدتها جارحة لها ، فأمرت بنقله الى الصعيد ، فاستقال من وظيفته بعد استشارة رياض باشا ، وفتح مكتبا للمصاماة بالاشتراك مع محمود أبو النصر ، وانشأ مجلة « الموسوعات » ، وكنت اتا أحرر فيها من وقت لآخر ، وانذكر اننى كتبت بها عدة مقالات

تحت عنوان « مشخصات الأمة » ناديت فيها باصلاح الحروف العربية كي يقرأ القارئون اللغة قراءة صحيحة من غير أن يتعلموا النحو والصرف

فلما سمع الشيخ محمد عبده شكوى أحمد فريد باشا لاشتغال ابنه بالمحاماة أخذ يهدىء من نفسه ، ويعرب له انه يخالفه في رأيه ، ويرى الاشتغال بالمحاماة ليس فيه ما يجرح الكرامة وما يخل بالشرف على نحو ما يظن الناس ، وما كان مألوقا في فهمهم لهذه المهنة في ذلك الزمان !

الخديو يغضب منى .

كان الخديو عباس لا يميل الى الشيخ محمد عبده ، ويظهر أن بعض الناس أبلغ الخديو أنه كان يعايشنى في جنيف . فلما عاد الى مصر جاءنى مصطفى كامل ، وأقضى الى بأن الخديو مغضب منى لأسباب منها اتصالى بالشيخ عبده . ثم قال مصطفى : « . . ومع ذلك لم تنجح في الحصول على موافقة الباب العالي على تجنسك بالجنسية السويسرية ! » .

رجعت من سويسرا ، ولما وصلت الى الاسكندرية أرسلت تقريرا ضافيا الى الخديو عباس دونت فيه أبحاثى السياسية بجنيف ، وقلت : « ان مصر لا يمكن أن تستقل الا بجهود أبنائها ، وان المصلحة الوطنية تقضى أن يرأس سمر الخديو حركة شاملة للتعليم العام » . ثم سافرت من الاسكندرية الى الفيوم عائدا لوظفتى بالفيوم ، ولم اتصل بالخديو . . وكان صديقى عبد العزيز فهمى قد انتقل منها لوزارة الأوقاف وأنا بأوربا ، فبقيت فى الفيوم مدة أنتقلت بعدها وكيلًا للنياحة بميت غمر سنة ١٩٠٠ ثم نقلت منها الى الفيوم ثانيا ، ثم الى المنيا .

وكانت سنة ١٩٠٥ ، فاستقلت من النياية لخلاف فى الرأى القانونى بينى وبين النائب العمومى كوريت بك . ولم تكن الاستقالة الأولى من النياية ، بل استقلت قبل ذلك مرة أخرى لخلاف قانونى أيضا ، ولكنى لم أنجح فى الاصرار عليها .

فلما وقع هذا الخلاف بينى وبين النائب العمومى ، أصررت على الاستقالة على الرغم من أنه نزل عن رأيه الذى كونه من خطأ وقع فيه وكلاؤه فى تكييف الوقائع ، لأننى ضقت باحتمال جو خائق بالنياية ان كنا مكلفين بالألا نتصرف فى الجنايات الكبرى الا بعد أخذ رأى النائب العمومى . وقد عزمتم على أن أعيش فى بلدى ، وكنت متأثرا وقتئذ بما كنت قرأته من مؤلفات تولستوى . ولكن صديقى عبد العزيز فهمى - وكان قد استقال من الأوقاف واشتغل بالمحاماة - ألح على فى الاشتغال معه ، فأجبت رغبته واشتغلت بها فترة قصيرة ثم اعتزلتها لانصرف الى العمل بالسياسة والتحرير فى صحيفة « الجريدة » .

الفصل الثالث

اشتغالى بالصحافة ورأى فى الخديو عباس

أسلفت انى عدت من سويسرا بعد أن أبلغنى مصطفى كامل ان الخديو مغضب منى لأسباب منها اتصالى بالشيخ محمد عبده فى جنيف ، وكان سموه لا يميل اليه . وقد قدمت لسموه تقريراً عن أبحاثى السياسية بعد عودتى الى الاسكندرية . ثم سافرت الى وظيفتى بالنيابة . ومكثت بها بضع سنوات حتى كانت سنة ١٩٠٥ فاستقلت منها لخلاف فى رأى القانونى بينى وبين النائب العمومى « كوربت بك » ، وعلى الرغم من نزوله عن رأيه ، فقد أصررت على الاستقالة ، لأنى ضقت باحتمال جو خائق بالنيابة فقد كنا مكلفين فيها بالألا نتصرف فى الجنايات الكبرى الا بعد أخذ رأى النائب العمومى خلافا لما كان العمل جاريا عليه من قبل ، وعزمت بعد ذلك على أن أعيش فى بلدى ، لأنى كنت وقتئذ متأثراً بما قرأته من مؤلفات تولستوى ، ولكن صديقى عبد العزيز فهمى - وكان قد استقال من الأوقاف واشتغل بالمحاماة - ألح على فى الاشتغال معه ، فأجبتة الى رغبته ، واشتغلت بالمحاماة بضعة أشهر (١) ثم اعتزلتها لاتصرف الى العمل بالسياسة والتحرير بالجريدة .

(١) فى مذكرات المرحوم عبد العزيز (باشا) أنه لما اشترك مع صديقه أحمد لطفى السيد فى العمل مما بالمحاماة سنة ١٩٠٦ ، جاءه والده ذات يوم كان =

= يحبه جبا جما ، وأخبره أنه شارع في شراء عزبة ، مساحتها أربعمائة وخمسون فدانا ، وأنه يريد كتابتها باسم « لطفى » فعند ذلك غضب لطفى ، وقال لأبيه :
« كلا .. لا أقبل مطلقا أن تميزنى على أحوى سالم وسعيد ، فإن أردت أن يكون العقد لى ولهما ، فذاك .. والا فلا فأكبر والده ذلك الشعور ، وأكبرت ذلك الخلق ، وتلك العاطفة النبيلة ، ولم يسع والده إلا اجابة طلبه . »

أما سبب انصرافه عن المحاماة الى العمل بالسياسة والصحافة ، فذلك قصة .. تلك أن المرحوم على شعراوى الذى كان يعرف لطفى السيد ومقامه عندما كان رئيسا لنيابة مدينة المنيا ، جاء ذات يوم الى مكتبنا ومعه رجل هرم اسمه « عم عزام » ، وأتينا أن بعض الناس زوروا عليه سندنا بمبلغ كبير ، وأنه حكم عليه ابتدائيا واستئنافيا بالمبلغ ، ويريد أن يعمل له لطفى السيد التماسا بإعادة النظر فى الحكم النهائى ، فدرس لطفى القضية ، ودرستها أنا أيضا معه .. فلم نجد وجها قانونيا للالتماس . ولأن شعراوى باشا يعلم بأن الحكم ظالم الح هو وعم عزام ليعمل لطفى الالتماس ، فقبل كارها بعد أن أفهمهما أن هذا الالتماس لا وجه له . ولما رفضت المحكمة الالتماس ، حدث أننا كنت أنا ولطفى ذات يوم داخلين المكتب ، فوجدنا عم عزام قاعدا على الباب ، فحين رآنا انتفض قائما ، وقال : « بقى الفلوس ودفعتها .. والقضية وخسرتها .. وأعمل أية .. ! » وهو يعنى بالفلوس مبلغ العشرين جنيها التى كان قد دفعها لمكتبنا كمقدم اتعاب .. ومن أخلاق لطفى السيد أن المال لا قيمة له عنده ، وأتت اذا شئت أن تعكر دمه ، فنناقشه فى مسألة مالية .. فلما سمع لطفى عبارة عم عزام أسرع بالدخول الى المكتب ، وفتح الخزانة ، وأخرج منها العشرون جنيها ، ركف المرحوم محمد سليمان كاتب المكتب أن يعطيها للرجل ، وأن يتلطف معه ، فيقول له : أن نقوده هذه كانت أمانة عندنا ، وقد نيهناه الى أن الالتماس لن ينجح ، فلما ألح حفظنا هذه النقود على ذمته لتردها له .

وعند انصرافنا من المكتب قال لى لطفى : « هل هذه هى المحاماة ؟ .. أنا فى غرفة المحامين أسمع من البعض قحش القول وهجره . وأجد من بعض القضاة جفاء وغلظة .. وما هم أولا أصحاب القضايا يمثلهم عم عزام . قالوسط من أوله الى آخره ، لا يعاش فيه . ولذلك صممت على تطبيق المحاماة ، !! »

ومن ذلك الحين كان أكثر اشتغالى بالسياسة ، وتحرير « الجريدة » .

اصحاب المصالح الحقيقية

وفى ذلك الحين وجدت مشكلة « العقبة » بين مصر وتركيا . وكان الأتراك يدعون انها لهم ، والانجليز يقولون انها ملك مصر ، وكانت الجرائد الوطنية تنصر الأتراك على الانجليز فى هذه المشكلة ، كما كانت الحال فى مسألة « فاشودة » ، فان المصريين كان ضلعهم مع الفرنسيين ضد الانجليز الذين كانوا يطالبون بفاشودة باسم مصر . وهذا المعنى لا يمكن تفسيره الا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتى به ، ولو كان فيه الخير لمصر .

فكرة انشاء « الجريدة »

وفى هذه الأثناء ، تحدثت فى أحوالنا السياسية مع صديقى محمد محمود باشا - وكان وقتئذ سكرتيرا لمستشار نظارة الداخلية . وكان حديثى يتناول مسألة « العقبة » وما يجب لمصر فى ظروفها السياسية من انشاء جريدة مصرية حرة ، تنطق بلسان مصر وحدها ، دون أن يكون لها ميل خاص الى تركيا أو الى احدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد . . . وقد رأينا أن تكون هذه الجريدة ملكا لشركة من الأعيان اصحاب المصالح الحقيقية الذين كان يصفهم اللورد كرومر وغيره من الانجليم بأنهم راضون عن الاحتلال، ساكتون عن حقوق مصر ، وان الحركة المعارضة للاحتلال انما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد كالشبان الأفندية والباشوات الأتراك !

لهذا الغرض دعوت فى « الكونتنتال » أصدقاءنا : محمد محمود ، وعمر سلطان ، وأحمد حجازى ، ومحمود عبد الغفار ،

وتحدثنا في الأمر ٠٠ وقد لاحظنا في حديثنا وأبحاثنا أن الأمل الذي كان المصريون يعقدونه على فرنسا في المساعدة على زوال الاحتلال قد تبدد وانتهى أمره بالاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا الذي عقد في إبريل سنة ١٩٠٤ . وكانت السياسة الفرنسية قبل هذا الاتفاق ترمي إلى مناوأة السياسة الانجليزية في مصر بعد أن فازت إنجلترا دونها باحتلال وادي النيل ، وكانت فرنسا تعاني في ذلك الحين مصاعب في مراكش ، وخشيت أن يؤدي فشل إدارتها هناك إلى تدخل الدول وبخاصة إنجلترا وأسبانيا .

ولكن أسبانيا كانت مشغولة بمتاعبها في المنطقة الأسبانية وكانت إنجلترا هي الدولة التي يخشى منها . ولهذا أرادت فرنسا أن تحصل على حيادها . وكان الثمن الطبيعي لذلك أن تحصل إنجلترا على حياد فرنسا في شئون مصر ، فعقدت الدولتان هذا الاتفاق . وأهم ما نص عليه :

« ان تعترف الحكومة الانجليزية أنها لا ترغب في تغيير نظام مصر السياسي ، وتعترف الحكومة الفرنسية من جانبها أنها لا تعرقل أعمال إنجلترا في مصر بسؤالها أن تحدد موعد الجلاء أو أية طريقة أخرى » .

وبعبارة أخرى اعترفت فرنسا بالاحتلال الانجليزي لمصر ، وتركت لإنجلترا حرية أكثر مما كان لها في الشئون المصرية . وكان من نتيجة ذلك أن انهيار أمل المصريين في فرنسا ، وتحققوا أنه لا يمكن الاعتماد عليها ، ولا على أية دولة في المسألة المصرية ، وأن على مصر أن تعتمد على نفسها في المطالبة بالحرية والاستقلال .

تأليف شركة « الجريدة »

تبادلنا الرأي نحن المجتمعين في هذا الموقف ، ووضعنا الخطة التي نسير عليها ، وعينا المبادئ التي تقوم عليها جريدة حرة

مستقلة غير متصلة بسراى الخديو ، ولا بالوكالة البريطانية ،
وأخذنا نسعى فى اقناع أصدقائنا ومعارفنا من أعيان
البلاد والفننا فى بيت محمود باشا سليمان شركة « الجريدة » ،
وانتخبت أنا مديرا لها ورئيسا لتحريرها لمدة عشر سنوات .

وكان رئيس الشركة محمود باشا سليمان ، ووكيلها حسن
باشا عبد الرازق الكبير .

وبعد تأليف هذه الشركة ، أخذت الجرائد المتصلة بالخديو
عباس تتهمنا بأننا متصلون بالانجليز ، واننا نمائلهم ضد
الخديو . وقد كان لهم عذر فى هذا الاتهام ، لأنه كان بين شركائنا
فى « الجريدة » عدا الأعيان طائفة من كبار الموظفين المصريين فى
الوقت الذى سيطر فيه الانجليز على الحكومة . ومن هؤلاء أحمد
فتحى زغلول باشا رئيس محكمة مصر ، وأحمد عفيفى باشا
المستشار بالاستئناف ، وعبد الخالق باشا عضو لجنة المراقبة
وصاحب الأثر الكبير فى وزارة العدل .

ومن الطريف ان كانت هناك جريدة يصدرها وقتئذ حافظ
عوض باسم « خيال الظل » فنشرت أبياتا ينسبها بعضهم الى
أحمد شوقي جاء فيها :

« ما فى « الجريدة » من ترجيه سوى

« لطفى » فرددوه لنا وكلوها ! »

وقد بقيت هذه التهمة عالقة بالجريدة حتى ظهرت بعد ستة
اشهر من تأليف الشركاء فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ . وقد افترضتها
بمقال تضمن أغراضها ومبادئها ، جاء فيه :

« ما الجريدة الا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ،
ومراميتها ارشاد الأمة المصرية الى أسباب الرقى الصحيح ، والحض

على الأخذ بها ، وإخلاص النصح للحكومة والأمة بتبيين ما هو خير وأولى ، تنقد أعمال الأفراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والأفراد في أشخاصهم وأعمالهم التي لا أساس لها بجسم الكل الذي لا ينقسم ، وهو الأمة ..

« لا يكون من أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة التشابهات بينهم ، وإن أظهر التشابهات في حالة الأمة السياسية هو التشابه في الرأي بين الأفراد وهذا ما يسمونه بالرأي العام ..

« والناس بطبائعهم اشتتات في الرأي ، كما قيل : « للناس عدد وعوسهم آراء » وهم في البلاد الحديثة العهد بالرقى ، ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير في الأمور العامة الى تدبير حاجتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم الى أن لهم فوق وجودهم الخاص وجودا عاما ، وأن بهذا الوجود العام كما لا يجب أن يرقى اليه بعمل الأفراد .. الخ ..

وكان من عادتي أن اكتب افتتاحيات الجريدة • ما كاد يمضي على صدورها غير أيام ، حتى انتهت مهمة اللورد كرومر في مصر ، فخطب خطبته المشهورة في « الأوبرا » ، وعلمت « الجريدة » عليها تعليقا لا يقل عنقا عن الجرائد المتصلة بالخديو عباس ، وسارت في طريقها وعلى مبادئها تنقد أعمال السلطة الفعلية التي كانت للإنجليز ، كما تنقد أعمال السلطة الشرعية - سلطة الخديو عباس •

وقد يحسن هنا أن اتحدث بإيجاز عن هاتين السلطتين ليقف القارئ على حالة مصر ، ومركز كل من الخديو واللورد كرومر في ذلك الحين •

الخدّيو عباس

كان الخديو عباس حلمي الثاني قوى الإرادة لا يَحتمل أن يرى غيره يتصرف في حقه ، فعندما ولي الخديوية المصرية أظهر صفات القوة الشخصية والشجاعة الأدبية والمزة اللائقة بالملك ، فأنكر على الانجليز تصرفهم في حقوقه واستثنائهم بالأمر دونه ، وعز عليه أن يصدر كل شيء باسمه على غير ما يختار ، فنفّر من معاملتهم إياه معاملة المغفور له والده ، وعارض في كثير من المسائل شدة ، فتنبه لذلك الشعور الوطني ، وقال الناس : « ان هذا الأمير سيعيد لنفسه مجد أبيه الأكبر محمد علي باشا » .

وقد رأى أن وزارة مصطفى فهمي باشا هي من أكبر وزارات « الوفاق » أو « الاستسلام » ، فأعقبتها ، ونصب وزارة حسين فخري باشا في ١٦ يناير سنة ١٨٩٣ ولكن انجلترا أرغت لهذا التصرف وأزيدت وعارضت في تنصيب الوزارة الجديدة ، وانخرعت « الخديو » على استقامتها فلم تلبث في الحكم غير ثلثة أيام ! ولكن ذلك لم يقل من عزم الأمير المطالب بحقه ، فسار في سياسة الخلاف كلما حانت الفرصة ، حتى انتقد الجيش في بعض نظمه وكان على رأسه « كتشنر » حينما تفقده الخديو في الحثود المصرية ، ففضبت الحكومة الانجليزية ، وطلبت الترضية فوق سدوره موقف المتمسك بحقه من ابداء رأيه في جيشه ، ولكن الوزارة المصرية الجديدة برياسة مصطفى رياض باشا ، قد اضطرت يومئذ إلى اجابة مطالب انجلترا ، فكانت النتيجة أن شكر سموه الجيش ترميزية للمردار كتشنر !

وبعد ذلك جاءت سياسة « شبيه الوفاق » من سنة ١٨٩٤ ، فأكثر الانجليز من عدد مستشاريهم وموظفيهم في النظارات ، وأخذت « عابدين » و « قصر الدوبارة » كليهما تحمي من يلجأ اليهما من الموظفين من الجهة الأخرى ، وترتب على حادثة الحدود وما سبقها نتيجة مساوية للنتيجة التي ترتبت على رضا الخديو السابق توفيق باشا بإلغاء قرار مجلس النظار القاضي بالاستغناء عن خدمات « مستر سكوت » . ثم أعقب ذلك امضاء اتفاقية السودان التي جعلت إدارته شركة بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية . ولكن المصريين فطنوا إزاء تلك الحوادث ، إلى أنه يستحيل عليهم أن يتقدموا في سبيل المدنية خطوة إلى الأمام إلا بمشاركة الأمة للحكومة في الأعمال العامة ، فأخذ كتابنا وكبراؤنا يشعرون بضرورة طلب الدستور عن طريق التدرج ، فحنق الانجليز - رغم أشتاتهم بالحرية - من هذه المطالب ، ولم يقتصروا على مناوأتهم للأمير الذي لا يريد أن يكون الاتفاق معهم سببا في انقاص سلطته الشخصية ، بل نالوا من الأمة أيضا بالتشهير ، فلما ان جاءت حادثة « العقبة » رأى الانجليز أن المصريين يرمون بهم ، فأرادوا أن يعطوهم درسا أليما بأحكام حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ ، ظننا منهم أن تلك السياسة - سياسة القسر - تصرف المصريين عن آمالهم في الدستور ، وتقطع السنة الخاطيين ، وتكسر أقلام الكاتيين لترشيح الأمة للدستور ، ولكن النتيجة جاءت على العكس مما قدروا فان هذه الحادثة جعلت مصر تزيد اقتناعا بأن حيلاتها موقوفة على نيل الدستور بقدر ما يسمح به مركزها السياسي . فازدادوا طلبا له وتشبثا به فقلل الانجليز من حديثهم ، ولانوا من جانبهم ، وجنحوا إلى استرضاء الخديو عباس بسياسة الوفاق .

وفى أثناء تلك الحرب السجال بين السلطة الشرعية ، والسلطة الفعلية ، أو بين الخديو واللورد كرومر واختلافهما على أيهما يكون له الأثر الفعلى فى الأمة المصرية قامت « الأمة » بين السلطتين تثبت شخصيتها غير المعترف بها من الفريقين ، وتؤدى فى سياسة البلاد واجبها حتى لا تكون متاعا لكل غالب ، ملتزمة فى ذلك طريق الحكمة والسلام .

الفصل الرابع

لورد كرومر

أمام التاريخ

أعمال اللورد كرومر

فى أوائل سنة ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر . وذلك بعد أن مضى على حادثة دنشواى الشهيرة نحو عام ٠٠ تلك الحادثة التى أبرزت سياسته الاستبدادية للعالم بصورة بشعة ، وأوضحت أعماله الاستعمارية لمصلحة قومه وبلاده بحالة لا تتفق مع مكانة دولة متقدمة . ومع ذلك فإن هذه الاستقالة عزيت الى سبب آخر هو ضعف صحته . ومهما يكن هذا السبب ، فإنه لو كان قد بقى لورد كرومر عاما واحدا فى منصبه لمعيد عيده الذهبى فى خدمة دولته ، لأنه صرف حتى يوم استقالته تسعة واربعين عاما فى خدمة المصلحة البريطانية . ولقد أصدرت من صحيفة « الجريدة » فى ذلك الحين ملحقا ذكرت فيه لمحة من ترجمته ، ثم فصلت أعمال ذلك السياسى بما له وما عليه ، فقلت :

تنقسم أعمال اللورد فى مصر الى قسمين : أعمال مالية واقتصادية وأعمال سياسية :

أما أعماله المالية الاقتصادية فيبتدىء تاريخها فى مصر سنة ١٨٧٧ ان عين عضوا انجليزيا فى صندوق الدين المصرى ، فأظهر لدولته من صدق النظر وسعة الاطلاع فى المسائل المالية ما أنساها القاعدة القائلة ان الذى يربى بين البنادق والمدافع كالشباب « أقلن بارنج » لا يميل به طبعه الى المالية او السياسة .

وفى سنة ١٨٧٩ اتفقت الحكومتان البريطانية والهندية على تعيينه مراقبا عاما للمالية المصرية ، لأن إنجلترا كانت تهتم مع فرنسا أشد اهتمام بالمالية المصرية صونا لأموال الانجليز والفرنسيين ، فأظهر براعة كبيرة • وكان فى جملة الذين مهدوا السبيل لاصدار قانون التصفية (١) الذى ضمن للدائنين الأوربيين أموالهم مع فائدتها • وقبل أن يصدر ذلك القانون حدث أن مالية الهند ارتبكت ارتباكا شديدا فعينتته حكومته عضوا ماليا فى المجلس الهندى، وهناك لم يفعل الا ما زاد حكومته ثقة به •

ولما تقرر أن يغادر السير ادوارد مالت معتمد إنجلترا فى القطر المصرى ، لم تجد الحكومة البريطانية رجلا أخلق بمنصبه من لورد كرومر (وكان لا يزال اسمه السير أفلىن بارنج) • ولما اجتمع مؤتمر لندرة سنة ١٨٨٤ للنظر فى المالية المصرية كان فيه مندوبا محترمي الرأي • وكان يقول مثل كل عاقل انه لا يمكن الاصلاح فى مصر قبل أن تقوم المالية فيها على أساس متين • ولا تقوم المالية على ذلك الأساس الا اذا زادت مواردها ووثقت بها أوروبا • ولا تزيد مواردها الا اذا تحسنت أحوال الرى على الأخص ، فأصبحت أرض مصر تنبت من الخيرات كل ما تقدر على انباته • وأما الموارد الأخرى كالجمارك والسكك الحديدية والبوستان ، وسائر مصادر الدخل فانها تأتى فى المقام الثانى • ولذلك أفرغ كل جهده لدى الدول حتى حملها على عقد قرض خص جزءا منه بالرى •

وما أن جاء سنة ١٨٩٩ حتى صار دخل الحكومة (١٥٠٠ ر ١٤١٠ جنيه) وكان كلما زاد التحسن فى المالية ، زاد فى المساعدة على تخفيف الضرائب ، غير أن النفقات كانت طائلة بسبب فوائد الديوان ونفقات المشروعات •

(١) فى أبريل سنة ١٨٧٩ ألفت لجنال للتصفية - أى تصفية الديون المصرية لأوربا - وصدر قانون التصفية فى ١٧ يوليو سنة ١٨٧٩ •

وكان لدى لورد كرومر مشروعان يؤمسانه ويشكو منهما .
أولهما : صندوق الدين . والثاني : وهو متعلق بتخصيص ما قيده
قانون التصفية بالديون كالدائرة السنوية والدومين ونحو نصف
دخل السكك الحديدية ، فلم يجد وسيلة للخلاص من هذين
المشروعين سوى الاتفاق مع فرنسا أولا . وحدث أن الملك إدوارد
مال إلى هذا الاتفاق ، وحببه إلى حكومته ، فاغتنم كرومر
الفرصة ، وأيده بما استطاع . . كما ذكر أخيرا في حديثه
مع مراسلي الطمان .

أما السبب الذي حمل لورد كرومر على الشكوى من صندوق
الدين مرارا في تقاريره ، فهو أن الصندوق لم يكن يقدم كل ما تطلبه
الحكومة المصرية من الأموال اللازمة للإصلاح . وقيل أن لورد كرومر
لما أذن بتأسيس البنك الأهلي ، وأيده تأييدا معروفا كان يؤمل أن يقوم
يوما مقام صندوق الدين . . وما نحن أولاء نرى هذا الأصل
يوشك أن يتحقق . .

ولما تم الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ (١) بين فرنسا وانجلترا كان
أول ما فكر فيه اللورد كرومر حل عرى صندوق الدين ، فرضيت فرنسا
بالمشروط التي عرضها عليها . ثم وافقت الدول الأخرى التي لها
أعضاء في ذاك الصندوق .

ولقد بات لورد كرومر في راحة عظيمة من الوجهة المالية
بفضل ذلك الاتفاق ، فلم يعد يرى فرنسا تعاكسه كما عاكست في
مسألة تحويل الدين ، ولا تشاكسه كما فعلت مع روسيا حين أخذت
نصف مليون جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، اضطرت إلى رده

(١) اتفاق عقد بين فرنسا وانجلترا بأن تطلق كل منهما يد صاحبتها ، تلك
في شمال إفريقيا ، وهذه في مصر .

بحكم من المحكمة المختلطة • ولا يشك أحد في أن لورد كرومر فار فوزا ماليا عظيما بإدخال ما أرادته من المواد المتعلقة بالمالية المصرية في ذلك الاتفاق ، كما فاز مع حكومته فوزا سياسيا بحمل فرنسا على التعهد لهم فيه : « بأنها لا تقيم أقل عقبة في سبيل انجلترا بمصر سواء كان يطلب تعيين موعد للجلاء أو غيره » •

وكان من سياسته المالية أيضا ، أن يرفع أثقال الربا الفاحش عن عواتق الفلاحين • • فأنشأ البنك الزراعى بعد انشاء البنك الأهلى ونصح للحكومة المصرية والبنك الأهلى بأن يساعده حتى يقدم للفلاحين مبالغ صغيرة تسهل عليهم سيل المعاش ، فأنشئ هذا البنك . وجعل من مواد قانونه أن يسلف الفلاحين من عشرة جنيهات الى ٥٠٠ جنيه بفائدة ٩ فى المائة • غير أن بعضهم ينتقد البنك المذكور فى بعض أمور ليس هنا محل إيرادها • •

وليس فى وسع أحد أن ينكر النتيجة التى وصلت اليها مصر بفضل تلك السياسة المالية • وإذا كان بعضهم ينتقد تفاصيل معينة فى بعض المصروفات ، فان كل عاقل ينظر نظرة شاملة صادقة الى تلك السياسة ، يحكم بأن لورد كرومر من خيرة الاقتصاديين وأكابر الماليين • فكم زادت مساحة الأرض المزروعة منذ سنة ١٨٨٣ الى اليوم ، وكم زادت قيمة الأرض الزراعية وأرض البناء بفضل سياسته • فليس بعجيب أن تعظم ثقة الأوربيين باللورد كرومر حتى صاروا يعدون كلمته حجة • أما خلاصة آرائه فى الحالة الحاضرة ، فهى أن هذا النجاح الاقتصادى قائم على قواعد راسخة ، غير أنه يجدر بالمصريين وغيرهم ألا يتهوروا فى الاقبال على احدى الشركات قبل أن يدققوا ويفحصوا ، ويستشيروا حتى يعلموا اذا كانت ثابتة القواعد قوية الأركان • •

أعماله السياسية

لا يفكر أحد على لورد كرومر أنه سياسى محضك بعيد النظر
رحب الصدر ، طويل الأناة كما يجب على كل سياسى . . غير أن
سياسته لا تخلو من أثر العسكرية التى صرف فيها شبابه . تريد أنه
شديد المراس فى مطلبه ، عظيم الإصرار على أمره . يبقى سنوات
عديدة يسعى الى غاية واحدة ، ويتخذ من كل سانحة حجة وبرهانا
لتأييد رأيه . ولا يدلنا على هذا كله مثل الحوادث التى جرت منذ
١٨٨٤ الى اليوم ، ولو اتخذنا من تلك الحوادث مسألة الجلاء فقط مثلا
لكانت برهانا كافيا على خطته . فانظر كيف أنه كان يجاهد جهادا
متواصلا حتى يستتب في كل زمن وسيلة جديدة لارساخ قدم دولته
فى وادى النيل ، قسير حملة السودان ، وكان فى كل ساعة يستجد
الدماء الانجليزية التى اريقت فى أم درمان على كل انجليزى ان يلفظ
كلمة الجلاء . . حتى استمال الى رأيه كبار الأحرار
والمحافظين ، فأيده لورد روزبرى ، كما أيده لورد سالبرى ، واستمال
اليه لورد لانسدون ، كما استمال سير ادوارد جراى ، وبات
الأسطول البريطانى حارسا لما قرره فى المسألة المصرية . فما رأينا
حكومته ترد له طلبا ، أو تستنكر عليه سياسة ، ولو بلغت أقصى
درجات الشره . واننا نورد للقارئ هنا مثلا واحدا لتلك الثقة
العظمى بسياسته :

لما وقع الخلاف بينه وبين الخديو عباس على تعيين حسين
فخرى باشا خلفا لمصطفى فهمى باشا سنة ١٨٩٢ ، ذهب لورد كرومر
الى عابدين ، واعترض اعتراضا شديدا على تعيين فخرى باشا ،

وأظهر للخديو أن اصراره على رأيه يجعل الأمر خطيرا ، وأبرز له تلغرافا من اللورد روزبرى ناظر الخارجية يؤيد قوله (١) .

فان معتمدا سياسيا يجد من حكومته مثل هذه المساعدة فى هذا الحادث ، يستشعر من نفسه حزما وان يكن بلا حزم . . . فكيف برجل عسكرى كاللورد كرومر . واذا أراد المطالع برهانا آخر على تقديس الحكومة الانجليزية لكل رأى من آراء لورد كرومر فى المسائل المصرية ، فليذكر حادثة فاشودة (٢) التى كادت تضرع نار الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وما تلك الحادثة وطرد كولونيل مرشان ورجاله من الجزء الذى احتله من السودان الا تأييدا لسياسة كرومر ، وما الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وانجلترا بعد تلك الحادثة على مناطق للسودان الا بناء على رأى لورد كرومر أيضا ، تمهيدا لاتفاق أكبر وخطوة أوسع فى سبيل التقرب بعد ذلك التباعد بين الدولتين .

ولما عقد ذاك الاتفاق ، أى اتفاق سنة ١٩٠٤ ، استراح اللورد من المسألة المالية الدولية فى هذا القطر ، كما استراحت دولته من المعارضة السياسية ، ثم التفت الى المسألة الدولية القانونية ، فكتب قبل استقالته بعام فصلا طويلا عن وجوب تغيير الطريقة القديمة

(١) أسقط الخديو عباس وزارة مصطفى باشا فهمى فى يناير سنة ١٨٩٣ ، وعين فخرى باشا رئيسا للوزارة ، وأراد بذلك أن يحقق سلطته الشرعية . فعمل ذلك من غير علم كرومر ، فامتنع كرومر عن الاعتراف بالوزارة الجديدة ، قبل أن يعرف رأى حكومته ، وانتهى الأمر بأن عدل الخديو عن فخرى باشا ، وعين رياض باشا رئيس وزارة .

(٢) وقعت حادثة فاشودة فى أكتوبر سنة ١٨٩٨ ، ان احتل الكولونيل مارشان بفرقة من الجنود الفرنسية جزءا قال الانجليز أنه تابع للسودان ، وأن مصر حقوق السيادة عليه . وقد بلغ النزاع بين بريطانيا وفرنسا مبلغا كادت تقوم من ورائه حرب بين الدولتين .

فى الامتيازات الأجنبية ، ثم نشر فصلا ضافيا فى هذا الموضوع ، اطلع عليه الناس وقتئذ ٠٠٠ فكانت حملاته على طريقة الامتيازات متتابعة كحملاته على صندوق الدين قبل أن ينال مراده .

وليس بنا من حاجة الى زيادة الاسهاب فى هذا الباب ، فان كل خطبة لرجال الحكومة الانجليزية ، وكل تقرير من تقارير لورد كرومر ، وكل أثر من آثاره السياسية ، يظهر حقيقة تلك السياسة التى اتبعها الشيخ الراحل . ولقد كان تقريره الأخير كوصية سياسية قبل رحيله عن هذا الوادى . وفى تلك الوصية لا ينصح دولته ببسط الحماية على مصر الآن لأن بسطها يقضى بتغير فى الحالة السياسية مع أن انجلترا تعهدت فى الاتفاق الانجليزى الفرنسى ، بأنها لا تغير شيئا من تلك الحالة ، كما تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انجلترا فى القطر المصرى .

نتيجة تلك السياسة

فما هى نتيجة تلك السياسة كلها ؟

نتيجتها اننا اذا نظرنا اليه بعين انجليزى فلا يسع الناظر سوى الثناء عليه . أما اذا نظرنا اليه بالعين التى يجب على المصرى أن ينظر بها الى مصلحة وطنه ، فلا يمكننا أن نصوغ له شيئا من الثناء على عمله السياسى فى مصر ، فانه حرم مصر من حياة سياسية تطمح اليها كل امة حية . واذا كنا لا نستطيع سوى الاعتراف بأن اللورد وسع نطاق الحرية الشخصية ، فلا يمكننا أن ننكر أنه فعل العكس كل العكس مع موظفى الحكومة من المصريين فتزع حريتهم وسلطتهم ونفوذهم ، والقاهما فى أيدي الموظفين الانجليز ، فبات كثير من أنكباء الشبان المصريين يتفرون من وظائف الحكومة . ولا أدل على هذا كله من شدة احتياج الحكومة الى موظفين ومستخدمين .

ولا نظن أن قلة الكفاءة التي يذكرها اللورد في تقريره إلا نتيجة التعليم الناقص ، وسوء معاملة الموظفين والمستخدمين في الحكومة ، وربما كان يرى خذلان التعليم الصالح موافقة لمصلحة بريطانيا العظمى ، لأن اللورد كان يتظن في كل أمر إلى مصلحة دولته قبل كل شيء : سنة الوطنى الغيور على وطنه .

وانه لمن هذا الطراز كلامه عن الوحدة الإسلامية وعن وجود التعصب لها في القطر المصرى ، مع أن التعصب ليس له فيه أثر على الإطلاق ، ولكن المصلحة البريطانية ، تريد أن تمثله هائلا مخيفا . ومن هذا الطراز أيضا كل عمل وكل اتفاق ، وكل خطوة وكل حركة لذلك السياسى الانجليزى العظيم .

وربما كان فى وسع اللورد أن يحصل لدولته على أكثر من الفوائد التي حصل عليها . . . ولو أنه صرف همهته أيضا فى كسب ولاء المصريين الذين وصف نفسه بأنه صديقهم ، ولو أنه وضع للتعليم العام قواعد تجعله منتجا مفيدا للامة ، ودفع عن المعارف العمومية من كان يناهضها ، واعتمد فى الاصلاح على أكفاء المصريين ، ورشحهم بحرية العمل الى حسن الادارة ، ورغب عن محو الجنسية المصرية الصميمة بما قال من انشاء جنسية دولية لمصر .

لا شك أنه بذلك كان يكسب لدولته صداقة الأمة المصرية ، ولشخصه ثناء من المصريين يعادل ثناءهم عليه لعمله على نعو المصرية الشخصية واحترام الحق والمساواة بين طبقات الأمة .

خصائص السياسة الانجليزية

للسياسة الانجليزية عدة خصائص أو بالأولى عدة قوى متماسكة متضامنة يتألف من مجموعها تلك السياسة التي تحكم على خمس العالم . واحدى تلك المميزات أنها لا تنقل سفيرا فى دولة ولا حاكما فى مستعمرة ولا معتمدا فى بلد ، الا اذا قضت الدواعى القاهرة كما حدث للورد كرومر معتمدها فى القاهرة . فان هذا السياسى الكبير يقيم فى العاصمة المصرية منذ بضعة وعشرين عاما . ولولا طول اقامته لما تمكن من اظهار مقدرته لأن النقل يقطع على السياسى سلسلة افكاره التى يتمكن بها من الصعود الى أعلى مراتب العلاء .

فلورد كرومر كان كبيرا بثلاث : مقدرته الشخصية ، ومساعدة دولته له بكل قواها ، وسعة الوقت الذى انفسح له فى مصر . وكان من يرسل نظرة شاملة الى أعمال لورد كرومر منذ تعيينه معتمدا لدولته فى هذا الوادى ، يجد أن تلك المزية فى السياسة الانجليزية ساعدته أعظم مساعدة لأنها مكنته من اتمام سلسلة أعماله حلقة فحلقة ، والرجل كان يشهد له الخصوم قبل الأحباب بأنه بعيد مرمى النظر ، طويل حبل الصبر ، فكان كل عمل يأتيه تمهيدا لما يأتي بعده ، وتوطئة للغرض الذى وضعه نصب عينيه ، فما وافق على ترك السودان فى أوائل عهد الاحتلال الا ليبقى استئناف الحملة على السودان وسيلة جديدة بين يدي الاحتلال يتوصل بها لزيادة توطيد القدم الانجليزية عند الفرصة الموافقة ، وقد عرضت له تلك الفرصة سنة ١٨٩٥ حين علم بسير القائد الفرنسى مارشان نحو السودان المصرى . وما عقد بعد فاشودة من الاتفاق السودانى مع فرنسا الا ليزيل ما بقى من آثار الاستياء فى نفوس الفرنسيين بعد تلك الحادثة ويمهد السبيل لاطلاق يد الاحتلال

فى المالىة داخل القطر ، واطلاق يد حكومته من الوجهة السىاسية ، فكان له ما أراد باتفاق سنة ١٩٠٤ مع فرنسا ، ثم بموافقة سائر الدول صاحبات الشأن فى صندوق الدين على ما يتعلق بمصر ، فتزعزع من تلك الساعة أساس هذا الصندوق .

وما مد اللورد يمين المساعدة فى ذاك الاتفاق اكتفاء بمزاياه فقط ، بل قال فى نفسه نحن نغنم ما يقدمه من المزايا السىاسية والمادية ، ثم نجعله تمهيدا جديدا لمشروع آخر عظيم هو تغيير تلك الامتيازات فى مصر ، وحصر السلطة التشريعية فى قبضة بريطانيا ، وما نيل هذا المراد بالأمر المستحيل ما دام الاتفاق الودى موجودا بين لندن وباريس .

ردى

على اللورد كرومر

★ المصريون فى رأى كرومر

★ فكرة الجامعة الاسلامية

★ ليس عندنا تعصب دينى

المصريون فى رأى اللورد كرومر

على اثر استقالة اللورد كرومر ، نشر تقريراً عن آرائه وأفكاره وما قام به من أعمال فى القطر المصرى ، وقد تناول هذا التقرير طبيعة المصريين وأخلاقهم وأفكارهم ، كما تناول ميولهم نحو الجامعة الاسلامية التى كانت تجول فى خواطر بعض المصريين فى ذلك الحين . وقد قمت فى مايو سنة ١٩٠٧ بالرد على ما حواه هذا التقرير من أخطاء وادعاءات . وانى ألخص هذا الرد فى الصفحات التالية :

ليس من موضوعنا أن نبحث عن قيمة الشرقى على العموم من جهة الأخلاق الثابتة وآثار التطور المدنى فى تلك الأخلاق ، ولا من جهة كفاءته السياسية لتدبير شئونه وحكم نفسه ، ولا من جهة تاريخ الشرق فى القمى ، ولا من جهة أن اليابان من بلاد الشرق كما استثناهما اللورد كرومر فى تقريره معتذراً بعدم معرفتها .. ولكننا نتعرض الى تفسير تلك الجملة المبهمة الكثيرة المعانى

القليلة الألفاظ التي صدر بها هذا الموضوع في تقرير اللورد . .

قال الأستاذ سايس : « ان الذين أقاموا في الشرق وحاولوا الاختلاط بأهله يعلمون حق العلم أنه يستحيل مطلقا على الأوربي أن يتحسد في النظر مع الشرقي . ومن المحقق أن الأوربي بادية الأمر يظن أنه هو والشرقي يتفاهمان ولكنه يأتي وقت - عاجلا أو آجلا - يرى الأوربي نفسه يحس فجأة أن ذلك كسان حلم تائم ، ويجده أمام انسان ذي ملكات عقلية غريبة بالمرة حتى ليظنه من سكان زحل ، »

وبهذا الرأي يدين اللورد كرومر ، ويحكم به على الشرقيين الذين يعرفهم لا على اليابانيين والصينيين .

صدق الأستاذ سايس اذا كان قوله منصرفا الى أن الأخوين الشرقي والغربي مختلفان في النظر جدا فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الأدبية . أو بعبرة أخرى أن الشرقي بذكائه وأطوار تمدنه ، ولغاته المملوءة بضروب المجازات ، وجوه القليل الاضطرابات ، وطبيعة أوطانه ، وما ألفه من التقاليد الدينية العريقة في نفسه ومواعظ أسلافه الغالب فيها تفضيل الزهاد . كل ذلك يجعله يميل بطبعه الى أن يجعل للفضائل الأدبية كالأحسان والكرم والوفاء والاخلاص الديني المقام الأول في حياته الدنيا ، ويفضلها على المنافع المادية . . فعيب الشرقي قد يكون في سهولة أخلاقه وسلسلة انقياده ، كما وصف به أرسطو سكان آسيا الذين يشهد لهم بالذكاء المقتضى صحة الانتاج ، ولكنه عاب عليهم ما ينتجه فأصل طبائع الاستبداد في حكوماتهم . ولا يظن المطلع على تقرير اللورد أنه أراد بقوله الإشارة الى تلك الفضائل . . خصوصا أنه ليس في مقام مدح الشرقي ، ولكن الذي يطلع على هذا الموضوع من التقرير يرى أنه يريد بيان مسألتين :

أولاهما : ان أفكار المصريين عقيمة غير منتجة الى حد أنه يصعب معرفة مقاصدهم وآمالهم السياسية ، وأقام على ذلك دليلا هو أن أفكارهم بعيدة عن تطبيق هذه القاعدة : « من يبيع المطلب يبيع الوسيلة » ، لأن بعضهم يظهر له الرغبة فى الرضى عن نتائج الاحتلال دون الرضى عن الاحتلال . وأن أحدهم طلب اليه تعيين مهندس انجليزى لتقسيم الماء . وبعضهم طلب قاضيا انجليزيا للفصل فى قضية . . . ولا تتعرض هنا لذكر الأشياء التى حملت هؤلاء الأشخاص على مثل هذه الطلبات على فرض أن طلباتهم تؤخذ على شعور المصريين جميعا . بل نرجىء هذا البحث الى الفصل الخاص بالموظفين . . . وغاية ما نورده هنا هو مناقشة القاعدة « من يبيع المطلب يبيع الوسيلة » .

وجد الاحتلال الانجليزى فى مصر بعلة اطفاء الثورة وتأييد سلطة الخديوية المصرية والمحافظة على المصالح الأوربية ، ثم تدرجت العلة الى اصلاح شئون الأمة المصرية واعدادها لتحكم نفسها بنفسها ، وليأمن الانجليز على حقوقهم التى كسبوها فى مصر . . . ثم ينصرف عنها الاحتلال .

متى كان هذا هو غرض الاحتلال ، وكانت أعمال الاحتلال الظاهرة الحسية تؤيد هذا الغرض ، فيكون المصرى الذى يرضى بالنتائج (أى بالاصلاح الذى لأجله جاء الاحتلال) ولا يرضى بالاحتلال هو انسان عقيم النظر حقيقة .

أما وقد رأى المصرى رأى العين أن الاحتلال لم يثبت له بالحس ان علة وجوده فى مصر هو تأهيل مصر لأن تحكم نفسها بنفسها ، بل رأى بين الغرض من الاحتلال وبين كثير من أعمال الاحتلال فى مصر بونا بعيدا فأشكل عليه الأمر الى حد أن المصرى المنصف الكثير التدبر والتروى ، الذى لا يشوب حكمه على الأمور فى مصر غرض من الأهواء ، يكاد كلما طابق بين علة الاحتلال وبين عمله . . . يقع

فى روعه أن للاحتلال مقصدا خفيا غير ما يقول السياسة الانجليز . ولا شك فى أن مثل هذا معذور اذا رضى بنتائج الاحتلال دون الاحتلال الذى اشكل المقصود منه على العقول .

بشر المصرى آماله حين رأى احترام الحكومة للحرية الشخصية التى نشرها الاحتلال والغاء السخرة وغيرها ، والقيام بالأعمال النافعة ، ولكنه لم يلبث أن رأى الاحتلال بعد ذلك بقليل قد ظهر فى كثير من المواطن بمظهر المعاند ، فأخذ أولا يقتسم هو والخديوية المصرية آراء الناس وميولهم ، فأخذ الناس أيضا بمقتضى هذه المعاندة بين السلطتين أن يلتجئ كل الى ما يرى فى الالتجاء اليه مصلحته الذاتية ، لأن المصلحة العامة هى فى ألا يلتجئ الناس الى أحد الطرفين دون الآخر ، لأن انتشار ذلك يضيع شخصية الأمة ، ويجعلها كما كانت لا حق لها الا الطاعة للامير (ان سميت الطاعة حقا) - ولا ينكر أحد أن تنازع السلطتين من طبعه أن يجعل العناد يتخلل كثيرا من الذين لا يهمهم الا مصالحهم أو رواتبهم ، ثم التفت الى التعليم العام فى المدارس الأميرية فوصل بها الى هذا الحد الذى نراه اليوم ، والذى جعل الحكومة نفسها تشكو قلة الكفاء بل ندرتهم . ثم مال الى النفوذ الشخصى للحكام الوطنيين فجردهم منه ، وانحصر عملهم فى الطاعة لغيرهم من الانجليز سواء أكانوا رؤساء أم مرءوسين . ثم لم يستبدله بمشاركة الأمة له فى الحكم . . . فاعتقد المصريون أو أغلبهم ان الاحتلال هو لمصلحة انجلترا وأوربا بالذات ، حتى لقد غلا بعضهم فى تقدير فهمه العدل الذى جرى على يديه الاحتلال ، فقال ان انجلترا مهما كانت نياتها لمصر ، لا يمكنها الا أن تعدل ما دامت ترى أن لا مصلحة لها فى الظلم .

فهل يكون المصرى غير منتج اذا بنى فكره على الأعمال المشاهدة من خير وشر ، واستنتج من هذه الأعمال نتيجتها اللازمة،

وهى أن الاحتلال قد جاء ببعض الفوائد ، ولكن تمشيه على طريقة حرمان الأمة من الحياة السياسية خطر على الأمة يوجد الضجر والقلق وسوء الظن بالاحتلال ، كما قدمنا • فتكون النتيجة أن تطبيق القاعدة المذكورة على وجود الاحتلال (وهو الوسيلة) وعلى فوائده (وهى المطلب) من الصعوبة بحيث لا يمكن تطبيقها من غير تعسف الا اذا ابان الاحتلال لمصر أنه يسعى فى منح مصر حياة سياسية بالتدريج • والمؤمل أنه يعمل على ذلك • ولا ينكر منصف أن الحكومة اهتمت فى هذه السنين الأخيرة بأمر نشر التعليم بين طبقات الفلاحين ، ونجحت فى تذليل كثير من الصعوبات التى كانت تقف فى طريق تعليم البنات •• ولو اضافت الى ذلك منح الأمة شيئاً من الاشتراك معها فى العمل لاقتنع الناس بأن الاحتلال مؤقت وأنه لا يقيم الا ريثما تصلح مصر لحكم نفسها بنفسها ، ولأمكن بعد ذلك القول بحق أن من ييغ المطلب ييغ الوسيلة •

ولكن هناك أمرا آخر لا يصح اغفاله ، لأنه قد زاد من الاحتلال ابهاما على ابهام وهو ما ذكره اللورد كرومر فى خطبته الأخيرة فى حفلة الوداع •• تلك الخطبة التى هى منصبية فى أغلب معانيها على الغرض السياسى الخطر الذى يحاول اقناع العالم به ، وهو جعل مصر مستعمرة أوربية مختلطة يكون للملاوربيين فيها الغنم ، وعلى المصريين منها الغرم فكان مهر قبول هذه الفكرة لدى الأوربيين أن صرح فى خطابه بأن الاحتلال باق فى مصر الى ما شاء الله ، فكان فى هذا التصريح التباس جديد على الناس •• ولكن مع ذلك نرى أن هذا التصريح ليس من شأنه أن يؤثر تأثيرا جوهريا فى السياسة المصرية لأن وقت التفكير فيه لم يحن بعد ••

ومن هذا يرى القارئ أن عدم صحة الفكر المصرى فى الانتاج لم تأت من طبيعة له ولا من عرض ملازم له ، بل أتت من امكان الحكم على مقاصد انجلترا من الاحتلال •

الجامعة الإسلامية

المسألة الثانية هي : الجامعة الإسلامية .

ان فكرة الوحدة الإسلامية قد تجول أحيانا بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفى تبعا للحوادث . فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصلحة مصر ، أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال الى الأبد ، قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقان التي استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة إسلامية ، وأن أوروبا لا تساعد في الشرق الا الأمم المسيحية ، فتمنى بعضهم لو كان للمسلمين وحدة كما في أوروبا هذه الوحدة التي يتخيلون وجودها ، وأنها كانت العامل لأوروبا على التداخل في أمر ولايات البلقان وأرمينية . نقول ذلك ونحن لا نعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعة مسيحية « بانىكر يستيانزم » كما خلقت كلمة جامعة إسلامية « بانيسلامزم » .

على أن عقلاء المصريين لا يرون لكليهما وجودا في العالم ، ولكن السياسة تخلق ما تشاء . فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة سانجة كهذه ، بعيدة عن أن تؤدي الى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوروبيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذى خلق هذا خاطر السانج هو مظاهر سياسته الأوروبية في الشرق .

أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجودا حقيقيا ، أو أنها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها فهذا لا دليل عليه مطلقا . . كما أنه لو حاول ايجادها لاستحال ذلك بالمرّة على طلابه .

علمنا التاريخ ، وطبائع البشر أنه لا شيء يجمع بين الناس
الا المنافع ، فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما أن
يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية ، او وحدة في الدين . وأن أبلغ
مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم في خلافة أمير
المؤمنين على بن أبي طالب مما هو مشهود ومأثور . ان أحسن
ما قرأنا في الجامعة الاسلامية . هو ما ذكره الأستاذ براون في
خطبته التي ألقاها في جامعة كمبردج سنة ١٩٠٢ وابتان فيها أن
الجامعة الاسلامية هي خرافة ابتدعها دماغ مكاتب التيمس في فينا .
قال الأستاذ براون :

« انه ليس من السهل تعريف مسنى البانيسلايزم بعبارة تنطبق
على المثل العربى المشهور « خير الكلام ما قل ودل » ومع الأسف
أننى استشرت أحد أصدقائى فد هذا الموضوع . فعرفت معنى
« بانيسلايزم » بلا تردد فى بضع كلمات . وهى « أن البانسلايزم
هى خرافة خلقها دماغ مكاتب التيمس فى فينا » .

وأن تجسيم الأمر فى نفس عميد الاحتلال فى مصر الى حد
أنه قد جعله تعصبا للدين لا محل له بالمره ، الا اذا كان الغرض
منه بعث القلق الى نفوس السياسيين من الأوربيين حتى لقد جره
ذلك الغرض الى التعريض بأحكام الدين الاسلامى ، وادعى انها
غير صالحة الى أن تطبق فى هذا الزمان .

قال ذلك بتصريحات كان من عادته أن يتوقاها مراعاة
لاحترام الدين الاسلامى وتقاديا من جرح شعور المسلمين . نقول
على غير عادته لأنه كثير الاحترام للدين الاسلامى ، كثير الحيلة
فى التعبير عنه بشيء يتعلق به ، وكل تصريحاته مستفيضة فى هذا
المعنى ، فقد قال فى خطبته فى كلية غوردون فى ٤ يناير سنة
١٨٩٩ :

« ولا يخفى عليكم أن جلالة الملكة ورعاياها المسيحيين من أشد الناس استمساكا بعروة دينهم ، ولذلك فهم يعرفون وجوب احترام دين غيرهم . على أن حكم جلالتهما يظل من المسلمين عددا أكثر مما يظل حكم أى ملك فى الأرض ، وهم مع ذلك فى عيشة هنية ، وسعادة تحت حكمها الكثير الخيرات ، دينهم موقر ، وعاداتهم الشرعية محترمة كل الاحترام . الخ » .

وقد يؤثر عنه أنه كان يشير الى أن المسلمين لا تصلح حالهم الا اذا تمسكوا بدينهم الصحيح . وقد ذكر فى تقرير سنة ١٩٠٥ ، وفى تقرير سنة ١٩٠٦ ، ما يفيد امتداح الذين يقومون بخدمة الدين وتخليصه من الدخائل التى متى خلص منها كان موافقا لحاجات الناس فى التمدن الحديث . وخص منهم بالذكر فقيد الاسلام المرحوم الشيخ محمد عبده ، والسيد أحمد منشى كلية عليكرة . ولهذه المناسبة نورد للقارئ نص الخطاب الذى ألقاه اللورد كرزون فى كلية عليكرة فى شهر مايو سنة ١٩٠١ مشيرا فيه الى فوائد الدين الاسلامى ، والاعتراف بما للمسلمين من الفضل والمدنية :

« نعم يمكن للمسلمين أن يسابقوا غيرهم اذا هم تعلموا كيف يسابقون ، وهو ما عرفوه مرة قبل هذا الوقت فى أيام كان فيها للمسلمين السطوة والسلطان ، وكان قضائهم يحكمون بالعدل بين الناس ، وفلاسفتهم وائمتهم يألّفون الكتب النفيسة » .

وأن عدول اللورد كرومر عن خطته من عدم التعرض للطعن على الدين الاسلامى بأى صورة ، ومخالفة لبعض سياسة الانجليز مثل اللورد كرزون فى الآراء المتعلقة بأن الشريعة الاسلامية أسمع من أن تعيق عن حاجات التمدن الحاضر ، كل ذلك جعل الناس

يكادون يجمعون على أن اللورد أراد أن يصور المصريين للانجليز
خصوصا ، ولأوروبا عموما بصورة أمة غير قابلة للرقى لتسهل
بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية الصميمة التي يحاول
محوها منذ عامين . لذلك قصد تجسيم الجامعة الاسلامية ،
وعزا لها ما عزا .

التعصب الدينى

بعد أن رأى القارئ أن الجامعة الإسلامية لا أثر لها فى مصر ولا تظن لها وجود فى غير مصر ، وأنها على هذه الصفة من العدم ليس من شأنها أن تزيد الجفاء بين الشرق والغرب . ولا أن تصلح ذريعة لرجال السياسة الأوربية يتخذونها سترا يستر أعمالهم فى الشرق . . . قد يكون من المفيد جدا فى هذا المقام أن نتعرض لمناقشة تلك التهمة الثانية التى تربطها بالجامعة الإسلامية رابطة النسب أو رابطة العلة والمعلول ، وهى تهمة التعصب الدينى .

والدين الإسلامى يأمر بالتعاون والتعاقد والائتلاف بين أفراد الأمة ، كما يأمر بالعدل والاحسان ، ويوصى خيرا بالمتحالفين له من أهل الأديان الأخرى على الصور المستفيضة فى الفقه . وليس من مبادئه مطلقا التعصب الشائز الذى يعبر عنه الأفرنج « بالفاناتيزم » .

أهل الدين الواحد يوجد بينهم بحكم وحدة الاعتقاد حب ومعاونة ، تختلف وجوه استعمالها باختلاف الصور العديدة التى تصورها لهم أقهامهم فى الدين . وأن هذه الجاذبية الدينية تماثل الجاذبية التى تولدها وحدة العنصر أو وحدة اللغة . ونظن أن الأوربيين لم يقصدوا يوما « بالفاناتيزم » هذه الجاذبية بوجهها ، ولكنهم يقصدون بالتعصب الدينى معنى عدائيا هو التحرش بغير المسلمين وحضارتهم ، والتريص بهم فلا يبقون عليهم . . . وهذا المعنى لا أصل له فى الدين ، كما لا أصل له فى نفوس المسلمين

الذين كل جنايتهم له أمام أوربا أنهم أخذوا يفكرون فى أن ترقى عقولهم بالتعليم ونفوسهم بالحرية ، وأن يدفعوا بجميع الطرق السلمية كل مبدأ أو قوة تعمل على الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الرقى العقلى ليسابقوا غيرهم فى الحياة المدنية • وأنهم يتعلمون الآن من الأوربيين ، فكيف يمكن أن يضمروا لهم ما يتجنى به هؤلاء عليهم ليبعدوهم عن كل مدنية ، وليسهلوا لأنفسهم دوام الاستفادة منهم دون أن يفيدوهم • أظن أن وجه المسألة على هذه الصورة مقلوب الوضع ، وأن المسلمين هم أولى بأن يهتموا الأوربيين بالتعصب ، ولكنهم لا يريدون ، ولا يستطيعون •

التعصب الدينى شعور لا يمكن للمنصف أن يحكم بوجوده الا بآثاره • ومن المشاهد أن الأقباط فى مصر يعيشون مع المسلمين مختلطين فى المصالح والمساكن متكاتفين فى المزارع والأعمال ، متجاورين على مقاعد المدارس متشاركين فى الوظائف والمرافق • ولم يسمع من زمان بعيد أن المسلمين الذين قد أمرهم الدين بحسن المعاملة هاج هائجهم على اخوانهم أو أظهروا يوما بما يقتضيه وجود التعصب الدينى فى النفوس من الحقد الذى يقدر زنده الاشتراك فى المصالح • ومن المشاهد أيضا أن الرومى يجرى به طلب الرزق الى مصر منفردا •• يدخل احدى قراها البعيدة عن مراكز الحكومة فينزلف الى كبار أهلها فيفسحون له فى مساكنها ملجأ يأوى اليه ، فلا يزال بتجارته الرابحة من بيع الزيتون والجبن بأضعاف القيمة بثمن أجل حتى يصبح ذا مال يقرضه الى الفلاحين بالربا الفاحش ، ولا يلبث على هذه الحال قليلا من الزمان الا هو دائن لأغلب أهل البلد ينزع ملكية أرضهم ويستخدمهم فيها عمال بسطاء • وكل هذا لم يحرك فى نفوسهم ذلك التعصب الدينى الموهوم • اليس ذلك الا لأن هذا التعصب عديم الأثر فى نفوس مسلمى مصر ؟

أقام اللورد كرومر على هذه التهمة الشنعاء التى اتهم بها المصريين دليلى ، أحدهما مسطور فى تقريره عن سنة ١٩٠٥ بمناسبة حادثة الهاميل فى الاسكندرية ، وكان فيها أن مصرى ويونانيا تشاجرا على مشترى قطعة من الجبن ، فطعن اليونانى المصرى طعنة بسكين فقتل عليه . وأعقب ذلك أن يونانيا أراد قتل يونانى آخر بغدارة فأخطأه وأصاب وطنيا ، فمات . فاجتمع رعاى الفريقين . وقال بعض فريق المسلمين « اقتلوا النصارى » .

والثانى حادثة العقبة التى جعلت بعض الجرائد أو بعض الناس يظهرون ميلهم الى تركيا بمناسبة الخلاف بينها وبين الحكومة المصرية على تحديد التخوم المصرية فى تلك الناحية .

أما حادثة الحقبة . . فيحسن بنا أن نلفت نظر القارىء الى الطدعية أن الناس ينتصرون للمظلوم خصوصا اذا كان من بنى جنسهم . وقد روت روتر فى ذلك الحين أن روسيا فى باريس أطلق الرصاص على جنديين فرنسيين فهم الأهالى بقتله لولا أن رجال البوليس أنقذوه من أيديهم ، ولم يقل أحد بأن انتصار الأهالى فى باريس للجنديين كان سببه التعصب الدينى ، فانتصار الوطنيين للقتيل ، وانتصار الأروام وغيرهم للقاتل هو من الأمور الطبيعية التى لا تثبت وجود التعصب الدينى عند المصريين . لم يبق بعدئذ الا قول بعضهم « اقتلوا النصارى » فلو صحت نية هؤلاء الصائحين بهذه الصيحة وقابلوا مسيحيين من المصريين أو من السوريين لما مسوهم بسوء . ولكن لفظة النصارى فى لغة الرعاى مرادف للافرنج أو نحو ذلك ، فان كان فى نفوسهم عصبية لكانت عصبية جنسية لا عصبية دينية .

أما حادثة العقبة . . فيحسن بنا أن نلفت نظر القارىء الى سبب الحركة الفكرية التى جرت فى مصر أبان حادث العقبة ، كان

من جرائها أن آساء الانجليز الظن بالمصريين وافتكروا أن هؤلاء يتبرمون بهم ويودون لو استبدلوا الاحتلال التركي بالاحتلال الانجليزى . وأن مثار هذا التبرم هو التعصب الدينى من المصريين للترك . وقد جر هذا الفهم الى نتائج مشئومة . . . ولكننا نظن أن الانجليز متى عرفوا السبب الحقيقى لهذه الحركة وانصفوا ، يقلعون عن تهمة المصريين بالتعصب ، تلك التهمة التى تسوؤنا أكثر مما ساءتهم .

نلتمس علل الأشياء بقياسها على أشباهها ونظائرها . فإذا أردنا أن نلتمس علة هذه الحركة الفكرية الحقيقية التى وجدت بمناسبة حادث العقبة حسن بنا أن نرجع بها الى نظائرها من الحوادث . ولا نجد حادثة أشبه بها من جميع الوجوه أكثر من حادثة فاشودة . فان الانجليز كانوا يدفعون الترك عن العقبة باسم الحكومة المصرية لمصلحتها ومصلحة الحكومة الانجليزية ، كما كانوا يدفعون الضابط مارشان عن فاشودة باسم الحكومتين المصرية والانجليزية ولمصلحتهما أيضا . وكان النزاع بين الانجليز وبين الترك على الحدود الشرقية كما كان بينهم وبين الفرنسيين على الحدود الجنوبية المصرية . فماذا كان ميل المصريين وقتئذ بالنسبة لحادثة فاشودة ؟

كان فى مصر حركة أفكار تتجه فى مجموعها الى اجتذاب الناس الى فرنسا أو الى مارشان وجماعته فكيف جاء هذا الشعور ، وما مصدره ؟

هل كان مصدره فى النفوس أيضا تعصبا دينيا لفرنسا ، أوجب استبدال الاحتلال الفرنسى بالاحتلال الانجليزى ؟

لا هذا ولا ذاك . . . ولكن من الطبائع العمرانية أن الأمة متى أبعدت عن إدارة حكومتها وجهلت مقاصد حكامها ، أو ظهر لها

منهم عين لاستئثار بالمنفعة دونها ، وحملها على ما تهوى
وما لا تهوى من غير أن تستشار ، كل ذلك يدعو بها إلى أن تتبرم
بحكومتها إذا كانت حكومة وطنية ، فإذا كانت أجنبية فيكون التبرم
والمقاطعة من باب أولى .

ومثال ذلك الحركة الفكرية للامة في أوائل الثورة العسكرية
سنة ١٨٨٢ فان الأمة كانت قلقة تحب الخروج من ذلك الاحتلال
الفعلى الشركسى وأن كان قلقها هذا لم يتعد حد القلق ، لأنه لم تكن
لها فى الثورة العسكرية فكرة ثابتة ولا مشاركة حقيقية . فهل كان
هذا القلق والضجر من حال الحكومة ، ومن قانون العسكرية ،
مترتباً على تعصب دينى من المسلمين ضد المسلمين ؟ لا شىء من
ذلك أيضاً فلو استقرأنا كل العلل الممكنة التى ولدت حركة الأفكار
فى سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٩٨ بمناسبة حادثة فاشودة ، وسنة ١٩٠٦
بمناسبة حادثة العقبة استقرأ صحياً خالياً عن الغرض ، لوجدنا
أن العلة فى كل ذلك واحدة ، وهى قلق من عدم اشراك الحكومة
إياها فى شىء من الحكم .

ولكن ذوى الأغراض – عن جهل أو سوء قصد – جاءوا
يصورون تلك الحركة الفكرية لعميد الاحتلال فى صورة التعصب
الدينى ، وهو قد صورها فى الصيف الماضى لأوروبا بصورة مزعجة
– كل ذلك ، والأمة هادئة بعيدة عن التعصب وآثاره .

الفصل السادس

طالبنا بالاستقلال التام فقالوا خرجتم على الباب العالي

الاستقلال والدستور

بعد ظهور صحيفة الجريدة ببضعة أشهر تألف « حزب الأمة »
فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٧ . وقد تضمن منهاجه عدة مبادئ فى
رأسها المطالبة بالاستقلال التام (١) والمطالبة بالدستور - وأقل
درجاته توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ، ومجالس
المديريات ، تدرجا الى ايجاد مجلس نيابى تتمثل فيه سلطات
الشعب . وقد اختير محمود سليمان باشا رئيسا لهذا الحزب ،
وحسن عبد الرزاق باشا الكبير ، وعلى شعراوى باشا وكيلين له ،
واخترت أنا سكرتيرا عاما .

(١) حينما أعلن الحزب هذه المبادئ كان من المعترضين على مبدأ الاستقلال
التام الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، واتهم الحزب بالخروج على
الدولة العثمانية صاحبة السيادة الرسمية على مصر فى ذلك الحين ، فرد عليه
بأن الحزب يقول الاستقلال التام ولم يقل الاستقلال الكامل ، وهناك فرق بين
الكامل والتمام يظهر فى قول القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت
عليكم نعمتى » فسكت الشيخ على يوسف بهذه الحجة . وانى لا زلت أسفأ
حتى اليوم لذلك الرد ، فان الاستقلال الكامل أشمل من الاستقلال التام ، لأن
المعنى فى « أتممت عليكم نعمتى » أى أسبغت عليكم نعمتى ، ولا يلزم أن يكون
أكملت .

وقد اتخذت بعض الصحف من مطالبة هذا الحزب بالاستقلال التام ذريعة للتشنيع عليه ، واتهامه بالخروج على الباب العالي صاحب السيادة على مصر في ذلك الحين ، ولكننا لم نأبه لهذه التهمة ، ومضينا في طريقنا . . . وكان لنا كثرة أو شبهها في مجلس شورى القوانين ، فأخذت في مهاجمة الحكومة الاستبدادية والمطالبة بالدستور ، وقدم محمود سليمان باشا وحسن عبد الرازق باشا الى رئيس الحكومة مشروعا بتوسيع اختصاص مجالس المديرية . . . فقدمت الحكومة مشروعا آخر أقل سعة من مشروعنا ، وقد سرنا انها صارت في هذه الطريق للوصول الى تحقيق ارادة الأمة ، والتحرر من سلطة الحكومة الشخصية . . . تلك الحكومة التي لا تستمد وجودها الا من أصل واحد هو عبادة البسالة ، عبادة القوى ، عبادة القهر والغلبة والاستبداد ، وما يجتمع حول تلك العبادة من الأوهام التي تتجسم في رؤوس العامة ، وقد جاء العلم ، ففتح للناس أسرار العالم وأصبح العالم بذلك هو موضوع الاعجاب والاكبار ، وصار العظماء أمام هذا العالم الطبيعي وقوته لا نصيب لهم من ذلك الاعجاب والاكبار ، فتجردوا بهذه المثابة عن الأصل الذي كانوا يستخدمونه في انشاء الممالك المستبدة ، ولكنه مع ذلك قد بقى في نفوس الناس طرف غير قليل من الأوهام القديمة . . . تلك الأوهام التي كانت في كثير من الأزمان كافية لاختضاعهم لشخص واحد يتصرف في دمائهم وأموالهم من غير أن ينزل لسماع اقوالهم أو الاصغاء لرغباتهم ، ولذلك كنا ننادى بتوسيع اختصاص اختصاص الهيئات النيابية توصلا للحصول على الدستور الذي تنقرر به سلطة الحكومة الشخصية أو حكومة الفرد .

انتخابى لمجلس المديرية

وفي عام ١٩٠٨ أراد حزبي أن أكون مع أعضائه في مجلس شورى القوانين ، فرشحت نفسى لمجلس مديرية الدقهلية ، لأن عضو

مجلس الشورى كان ينتخبه أعضاء مجلس المديرية من بينهم فلم
أنجح فى هذا الانتخاب ، ثم رشحت نفسى فى الانتخاب الذى بعده
سنة ١٩١١ فنجحت ، ولكن طعن فى بأتى لست مقيما فى بلدتى
« برقين » وألغت محكمة الزقازيق الانتخاب فعادت للانتخاب مرة
أخرى ، فنجحت بأصوات أكثر من الأولى . وكان الخديو فيما يقال
يرتاح الى الطعن فى انتخابى . وذات يوم خاطبنى بالتليفون
عبد الله وهبى باشا ودعانى الى الشاى فى بيته ، فوجدت عنده
جاء بك مصطفى الطاعن فى انتخابى ، فتحدثنا فى شئون الانتخاب ،
فقال لى رحمة الله : « ان صداقتى لابيک ، وتقديرى لك يجعلانى
أتنازل عن الطعن بشرط أن تأتى أنت ووالدك ، وشكرى باشا المدير
للغداء عندى فى قريتى « صدفة » يوم الجمعة المقبل » .
فأجيبته الى رغبته ..

وفى ذلك الوقت عاد الدكتور محمد حسين هيكى من أوروبا
بعد أن حصل على اجازة الدكتوراة ، أخذته معه فى زيارة لكثير
من القرى لأقف على حالة التعليم الأولى ، وأقدم بذلك تقريرا لمجلس
المديرية ، وقد فعلت .

ومن طريف ما يذكر هنا ، أننا مررنا بكتاب فى احدى القرى ،
فوجدنا قلة من عدد التلاميذ ، فقلت للشيخ : « أظن أنك صرفت
الأطفال لتنقية الدودة » .

فقال : « ليس فى بلدنا دودة ، لأنى أذنت الأذان الشرعى فى
الجهات الأربع للقرية ، فامتنعت الدودة باذن الله تعالى » .
قال هذا وكنا نشم رائحة الدودة حولنا فى المزارع !

بيع الرتب والنياشين

قلت أن الحكومة الشخصية - أو حكومة الفرد - تستمد
وجودها من عبادة البسالة والغلبة والاستبداد . وأزید

هنا أن الفرد من أبناء الأمة فى ظل هذه الحكومة ، ليست له حياة ظاهرة ولا شرف معترف به الا بالاضافة لشخص الحاكم . ومادام الأفندى لا ينقلب زيه يوم العيد الى زى بطل من أبطال القرون الوسطى ، كل صدره قصب يبرق ، وتعلق عليه نياشين تلمع ، ويحمل بعد ذلك سيفاً لا يستطيع أن يجرده ، ولا السيف صالح أن يجرد . فمهما يكن له من شرف المولد ، ورقعة الأخلاق ، وسعه العيش فانه لا يكون شريفاً الا اذا حصل على رتبة أو نيشان .

من أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد ، وتحدثت بها الصحف سنة ١٩٠٨ وقد كان لها سماسة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، وأصبحت تعطى لا مكافأة على عمل من أعمال البسالة كما يكون بين رجال الجيش ، ولا على خدمة كبرى من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون القاب التشريف . وكان السمسار يأخذ المقدم من المشتري ، فاذا تم التشريف يأخذ المؤخر . وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائماً يهتمون برضاها عنهم ، فهى تلعب بأهوائهم وسهوائهم وتأسرهم بها . . . وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت الى الحكومة الحديثة ، فكانت أثراً من الآثار الاستبدادية الأولى . وقد عرفت الحكومات الديمقراطية الراقية أن تتخلص منها ، ولكنها ما تزال فى بعض الشعوب من أهم المؤثرات فى الأخلاق خصوصاً فى الشعب المصرى .

سياسة الوفاق وسياسة الخلاف .

فى سنة ١٩٠٨ أيضاً كان قد مضى عام على تعيين سير الدون غورست معتمداً بريطانيا فى مصر خلفاً للورد كرومر الذى اعتزل منصبه فى أبريل سنة ١٩٠٧ . وقد عرف بعهد سياسة الوفاق .

وهى السياسة التى عادت للمرة الثانية بعد أن حلت محلها سياسة
الخلاف بين الخديوى عباس واللورد كرومر .

وتبدأ سياسة الوفاق من عهد الخديوى محمد توفيق ، فقد
دخل الانجليز مصر على وفاق بينه وبينهم فألغوا الجيش المصرى ،
واستبدلوا به جيشا صغيرا ضباطه من الانجليز ، ثم محوا العلوم
الحربية الواسعة فى المدرسة الحربية ، فبدلا من أن يرقوها حتى
تخرج ضباطا كما تخرج مدارس انجلترا وفرنسا قصروها على
تخريج ضباط بدرجة . . هم أنفسهم يريدونها ، درجة تجعل الضباط
المدرى درؤوسا دائما . ثم أخذوا يخرجون من الجيش العامل كل
ضباط الانجليز . وقد دل هذا التصرف فى الجيش على أن
الغرض منه اضعاف مصر لا تقويتها . وتلك كانت احدى نتائج
الوفاق والتسليم للانجليز بعمل ما يريدون .

لقد جاء الانجليز مصر فوجدوا فيها جيشا ثائرا واستعاضوا
به غيره ، وألغوا كذلك مجلس النواب . . وكان حقهم أن يبقوه فلم
يفعلوا ، بل يستعوضوا به غيره ، نقول على وجه التسامح أنهم ألغوا
مجلس شورى ضئيلا ليكبر بالزمان فمضى كل عهد سياسة الوفاق ،
ولم يفكر الانجليز فى تعديل مادة من مواد حتى يسيروا به الى
الأمم . وذلك يدل على أنهم كرموا لمصر أن تتدرج فى الحكم
الدستورى .

واذا كان الانجليز لم يعملوا وقتئذ للانسانية وعملوا لتقوية
الحكومة بأى شكل ، فكان من مقتضى ذلك أنهم حين أضعفوا حكومة
الدستور أن يقووا الحكومة الشخصية . أى الحكومة الخديوية
ولكنهم لم يفعلوا بل أضعفوها هى أيضا .

ومن الشواهد على ذلك أن ناظر الحفانية وقتذاك ، سعادة
حسين فخرى باشا ، رفع تقريراً الى مجلس النظار عن المستشار

القضائي مستر سكوت • وكان الخديو توفيق في سياحته بالوجه القبلى ، فانعقد مجلس النظار وقرر عدم استمرار المستر سكوت مستشارا فى الحقانية ، وأرسل بذلك للخديو الذى أرسل لمجلس النظار تلغرافا بالموافقة والارتياح ، فلم يكن الا قليل حتى أكرهه اللورد كرومر على الغاء ذلك القرار • ونتج عن ذلك تمكن الضعف من قلوب النظار المصريين وزيادة الاستسلام من جانب الخديو ، ووقعت الحكومة كلها من ذلك أضعاف السلطة الاهلية سواء فى ذلك سلطة الحكومة وسلطة الأمة •

كان يجرى كل هذا التصرف الذى من شأنه اعدام كل سلطة أهلية من الأمة والحكومة معا والسياسة العالية تجرى فى مجراها على ها النحو أيضا ، وأكبر الأمثلة على ذلك التخلّى عن السودان وتركه ، وكان من معارضة الرجل الكبير محمد شريف باشا الذى كان أحق وزراء مصر على الإطلاق بالتمجيد •• ولكنه لم ينجح فاستقال ، وجاءت وزارة نوبار باشا فأخلت السودان • ثم فتح على أنه شركة فى الادارة بين مصر وانجلترا كما تعرفون •

التقريب من الانجليز

بعد أن جردت الأمة من سلطتها والحكومة الأهلية من هيبتها ، آمن المصريون بأن الانجليز طامعون لا مصلحون ، وأخذ كل موظف يحتمى برئيس انجليزى • وأخذ العمد والأعيان يستعينون فى قضاء أعمالهم غير المتناهية بالتقرب من الانجليز تقريبا وقتيا دعا اليه حب قضاء المصلحة الشخصية من القادر القاهر ، ولكن هذا التقرب من طبيعته أن يزول بانقضاء تلك المصلحة ، ثم يتجدد كلما جاءت مصلحة جديدة •• فنتج عن سياسة الوفاق هذه فتور عام فى فكرة الاستقلال وتراخ مفاصل الوطنية الصحيحة ، وانصرفت النفوس طبعاً عن التعلق بالخديو الذى كان ينسب كل

تصرف سيء للانجليز الى رضاه عنه واققراره عليه . وكان اللورد كرومر والجرائد الانجليزية لا تدع فرصة تمر الا انتهزتها للثناء على الخديو وأطرافه بأبلغ الاطراء .

وقد بقيت سياسة الوفاق في مصر ، وزادت وضوحا منذ فشلت معاهدة سنة ١٨٨٧ لتحديد شروط الجلاء . وكان للانجليز في هذه السياسة الغنم وعلم مصر الغرم . . للانجليز فيها السؤدد والمنفعة ، وللمصريين فيها المذك والخسارة . وانتهى عهدا الأول بوفاة الخديو توفيق . وابتداء عهد سياسة الخلاف منذ توليه الخديو عباس حلمي الثاني على الأريكة المصرية . ثم تجددت سياسة الوفاق ثانية في عهد تنصيب وزارة نوبار باشا سنة ١٨٩٤ ، ولكن هذا الوفاق الأخير لم يكن بينه وبين الوفاق الحقيقي المبني على الثقة والمنفعة المتبادلة الا شبه من الطلاء الظاهري لأنه كان مسببا على الاستسلام للقوة ، ثم لم يلبث أن توتوت العلاقة بين سمو الأمير واللورد كرومر فانكشفت عن جفاء مستحكم الحلقات ، ثم تجددت سياسة الوفاق بعد مبارحة كرومر مصر وتعيين السير ألدون غورست مكانه ، وكان من نتائج هذه السياسة أن تدخل المعتمد البريطاني لم يقل عما كان عليه من قبل ، بل ربما زاد وامتد الى بعض المصالح الأهلية الصرفة .

قانون المطبوعات

في سنة ١٩٠٩ أرادت الحكومة بحث قانون المطبوعات الذي كان قد صدر ابان الثورة العرابية ، وهو قانون بالغ القسوة على حرية الرأي ، فحملت أنا وزملائي الصحفيون ، على ذلك القانون حملة قوية ، ولكننا لم نوفق لأن بعض أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية كانوا قد طلبوا شيئا من هذا فيما

سبق ، وعارض فيه اللورد كرومر . ثم لما أريد احياء هذا القانون وافق عليه الانجليز ووافق عليه مجلس الشورى بالأغلبية مع الأسف . . . وفى صيف ذلك العام سافرت الى أوربا للاستشفاء ، وعزمت على مقابلة « سير أدوارد جراى » وزير الخارجية الانجليزية لأشكو له تصرف الانجليز فى حرية الصحافة . وأعطانى صديقى محمد محمود باشا رحمه الله كتابا لأستاذة المستر سميث عميد كلية « بلبول » بأكسفورد ليقدمنى لوزير الخارجية البريطانية الذى كان تلميذا له . فلما سافرت الى أكسفورد وكان أخى سعيد وقتها طالبا بها ، قابلت المستر سميث فطلب منى أن أكتب مذكرة بما أريد ، ثم نسافر فى اليوم التالى أنا وهو الى لندن ليقدمنى الى « السير أدوارد جراى » . وفى اليوم التالى ذهبنا الى لندن . ثم الى وزارة الخارجية ، فاعتذر الوزير عن استقبالى بسبب مناورة بحرية ، وأحالنى الى وكيل الوزارة - وأظنه المستر ماليت - فقدمت له المذكرة ، وبينت له وجوه الخطر على الحرية من هذا القانون ، فوعدنى خيرا .

مد امتياز قناة السويس

وفى نفس السنة - ١٩٠٩ - أرادت شركة قناة السويس أن تعد امتيازها أربعين سنة جديدة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الى الحكومة المصرية ، وكان المستشار المالى يميل للاخذ بهذه الفكرة ، وكذلك « سير ألدون غورست » وبطرس غالى باشا . . . فتحدثت فى ذلك الى حسين رشدى ، وسعد زغلول باشا ، فأحالانى على رئيس الوزارة بطرس باشا وعلى المستشار المالى الانجليزى ، فذهبت الى المستشار ، وأعرضت على المضى فى هذا الموضوع ، وطلبت منه عرضه على الجمعية العمومية ، وهى أكبر هيئة نيابية وقتئذ فى البلاد ، ولكننى لم أوفق لاجابة طلبى فتركته

ونذهبت الى رئيس الوزارة فى بيته بالفجالة فاستقبلنى بما كنت أعهده فيه من لطف وأدب ، وحادثته فى الأمر ، وطلبت منه باسم حزب الأمة أن تعرض مسألة امتياز قناة السويس على الجمعية العمومية ، فأجابنى بقوله : « يا لطفى أما تنزل من السحاب ، لتكون معا على الأرض ؟! »

وأبى أن يقتنع برأىي ، فتركته وسرت فى حملتى على هذا الموضوع . وبعد ذلك أظن أن شركة القناة اشترطت أخذ رأى الجمعية ، لما رأت من هياج الرأى العام ضد هذا المشروع . فاستدعانى بالتليفون لأحضر عنده فى وزارة الخارجية ليلقى الى حديثا صحفيا فى مسألة القناة . وعلى ظنى : أنه هو الحديث الوحيد الذى أخذته من وزير أو رئيس وزارة طول مدة اشتغالى بالصحافة .

ولما دخلت على بطرس باشا ، وجدت عنده فتحى زغلول باشا وكيل وزارة الحقانية ، فباينى بطرس باشا قائلا : « هأنذا أجيب طلبكم وأحيل الأمر على الجمعية العمومية تقضى فيه بما تشاء » .

وكانت الجريدة هى أول من نشر هذا الخبر . وقد عرض الموضوع على الجمعية ، فقررت رفضه .

بعد ذلك فى سنة ١٩١٠ ، كنت فى منزل صديقى على شعراوى باشا ، ومعنا فتحى زغلول باشا ، وإبراهيم الهلباوى بك ، فدخل علينا بطرس باشا غالى بلا موعد سابق ولا استئذان ، لأنه كان صديقا لشعراوى باشا ، فقال لنا : « علام تتآمرون ؟ » .

فقال الهلباوى بك : « نتآمر على الحكومة ، لأننا نريد إثارة البلاد لطلب الدستور » .

فقال شعراوى باشا : « من أين جئت يا بطرس باشا ؟ »
فأجاب : « كنت أتفره ماشيا فى الجزيرة » فلامه شعراوى
باشا على أنه يسير بلا حرس ، فقال بطرس : « قد يكون معك
الحق ، لأنى تلقيت منذ أيام كتبا يهدنى فيها كاتبوها بالقتل . . ! »
فقلت له : « يا باشا أظن أن الذى يريد أن يقتل لا يهدد . . ! »
وقد أخطأت الظن لأنه رحمه الله قتل بعث ذلك بأيام . . وكان
لهذا الحادث رنة أسف بديع ، وعلى الخصوص فى البيئات
المتعلمة .

قضية الجريدة

قدمت أن الخديو عباس حلمى لم يكن راضيا عن شركة
« الجريدة » ولا عن حزب الأمة ، وأن بطانته كانت تعارض
« الجريدة » وتعمل لحل الشركة . وقد أفلحت هذه البطانة فى
اقناع بعض الشركاء بالخروج على الشركة ، وطنب حلها سنة
١٩١٠ ثم رفع هذا البعض دعوى أمام المحكمة المختلطة طالبا هذا
الجل . وقد دفعت مصاريف الدعوى - على ما علمت - من الخاصة
الخديوية ، وأنعم على هؤلاء المدعين بالرتب . وكان المحامى الذى
رفع الدعوة هو محامى الخاصة . فكتبت مذكرة بكل هذه التصرفات
وأعطيتها للافوكاتو جرين المحامى عن الشركة .

وقد كان الأمير حسين كامل (السلطان حسين) رئيسا
لمجلس شورى القوانين وقتذاك فدعا محمود باشا سليمان ، وعلى
شعراوى باشا ، وأنا ، ولما استقر بنا الجلوس ، قال الأمير حسين :
« أنا لا أقهم أنكم ترفعون دعوى على خديو البلاد ! »

فقلت له : « يا أفندينا وأنا كذلك . . ولكن سمو الخديو هو
الذى رفع علينا الدعوة » .

وما كدت أسرد له أدلتى حتى دخل علينا بطرس غالى
باشا رئيس الحكومة ، واتفقنا فى المجلس على أن يطلب المدعون
تأجيل الدعوة الى أجل غير مسمى . . ومازالت مؤجلة حتى الآن !

محاضرات فى « الجريدة »

ـ وقد كانت صحيفة « الجريدة » عدا ما تقوم به من خدمات
وطنية وسياسية تقوم برسالة ثقافية بين الشباب المتعلم ، فكان
يؤم دارها كثير منهم للاستماع الى محاضرات عدد من كبار
الأساتذة والمحامين المصريين . وقد اتفق وقتئذ أن ناظر مدرسه
الحقوق الانجليزى ـ وكان أستاذ القانون المدنى بها ـ لم يكن من
الحاصلين على شهادة الليسانس بل سقط فى امتحان الليسانس
فى باريس ، فأخذت « الجريدة » تطالب الحكومة أن تستبدل به
غيره ، فلم تجب الى طلبها ، فدعوت المرحوم الأستاذ أحمد عبد
اللطيف ليدرس القانون المدنى للطلبة فى دار الجريدة ، فقبل هذه
الدعوة ، وكان يؤم دروسه الكثيرون . ومن تلامذته كامل البندارى
باشا ، وأحمد صديق باشا ، وغيرهما . .

وفى ذلك العام ـ عام ١٩١٠ ـ وضع حزب الأمة مشروعا
للدستور ، وفكر فى أن يقدم للخديو عريضة من أهالى البلاد بطلب
الدستور ، وقد حررت هذه العريضة ، وأخذ الأهالى فى امضائها .
وهنا لا أنسى مكرمة للمرحوم حسن باشا رضوان ، وكان وقتئذ
مديرا للغربية ، فقد قابلته فى وزارة الداخلية ، وأسرت له الأمر ،
وطلبت اليه أن يغض الطرف عن هذا العمل الذى سنبثىء به فى
مديرية الغربية ، فأجابنى : « كلا . . لن أغض الطرف . بل سأساعد
على امضاء العريضة من الأهالى . . ! » . وقد وفى هذا المدير
الوطنى بوعدده . . . !

رجال عرفتهم

● حسن عاصم باشا

● مصطفى كامل باشا

● قاسم أمين بك

● أحمد عرابي باشا

حسن عاصم باشا

قبل أن تجمعني الصداقة بالمرحوم حسن عاصم باشا ، جمعني العمل معه في النيابة العمومية . وكان وقتئذ « أفوكاتو » عموميا . عرفته رئيسا ، وعرفته صديقا ، ثم عرفته مستشارا ، ثم سر تشريفاتي لسمو الخديو عباس حلمي الثاني ، ثم رئيسا للديوان الخديوي . فما وجدت رجلا أظهر ثباتا على المبادئ ، وأقوى تمسكا بنهج الاستقامة من هذا الرجل . فمن عرفه عرف خلقا صريحا لا يتلون ، وسيرا قويا لا يعوج ، ومبادئ راسخة لا تتغير ، حتى لقد كان يرميه بعضهم بالتطرف ، وشدة التمسك بالحق ، ويعدون ذلك عليه جفاء في الأخلاق ، وما به جفاء ، ولكن الطاعة للمبدأ كالطاعة لقائد الجيش في ميدان القتال .

كان عاصم باشا رجلا أسمر اللون ، قصير القامة ، جذاب الطلعة ، مقتصدا في حركاته عند الحديث ، جهوري الصوت يميل في لبسه دائما الى السواد على طراز واحد ، قورا في ملبسه

وقورا فى مجلسه ، لا يخرج الا نادرا ، قليل الضحك كثير التيسم ويمتاز عن كثير من أمثاله بأنه لا يغلو فى ارضاء الناس بالقول ، ولا يعد بعمل مالا يريد .

وقد اشتغل رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم لنيابة طنطا ، ثم مفتشا فى لجنة المراقبة ، ثم عين أفوكاتو عموميا ، وبقى منتدبا فى لجنة المراقبة ، فلما طلب اليه مظلوم باشا ناظر الحقائقه وقتئذ والسير سكوت مستشارها ، أن يياشر عمله الجديد . . رفض الاشتغال بوظيفة الأفوكاتو متى كانت خلوا من العمل الجدى ، لان مسيو لوجريل لم يكن يريد مشاركة غيره فى العمل ، فوعده الناظر والمستشار أن سيكون له عمل معين ، وأنه لن يبقى الا بضعة أشهر ، ثم يعين نائبا عموميا بدل المسيو جريل .

ولكن الحال قد تبدل ، واتهم عاصم بأنه معاد للانجليز . . فأمر اللورد كرومر المستشار السير سكوت بفصله من وظيفة الأفوكاتو العمومى ، وكان سكوت من العدالة فى الأخلاق بحيث يعز عليه تنفيذ هذا الأمر فى حق رجل ، عرف هو والناس أجمعون مكانه من الفضل والعمل ، وموضعه من أصالة الرأى والاستقامة ، فكان المستشار فى مركز حرج بين تنفيذ أمر المعتمد البريطانى ومعاملة عاصم بما يقتضيه العقل وتوجيه المصلحة من أن يرقيه ، كما وعده ، لا أن يفصله من غير ذنب . فبقى الأمر بين البقاء والاقصاء . . كل هذا وعاصم يعمل بغيرته المعروفة وجده الزائد من غير أن يهتم بفصله أو ترقيته .

ومما يدل على ما كان له من علو فى النفس ، وقوة فى الخلق أنه فى هذه الفترة بين الفصل وعدمه وضع مشروعا يقضى بنقل نحو خمسة وثلاثين كاتباً باليومية فى محكمة الاستئناف التى

غصت بالكتابة الى المحالم الابتدائية التي كانت في أشد الحاجة الى الموظفين ، فدخل عليه باشكاتب المحكمة ب خطاب نقل هذا الجسم الغفير ، وقال له : « مالك ولهذا العمل ؟ والأمر يفصلك تحت الختم » . فأجاب :

— انى لا اشتغل الا للامة .. وما دمت فى وظيفتى ولم يصدر أمر فصلى . فلا مندوحة عن القيام بواجباتى .

بقى أمر الفصل تحت التقديم الى مجلس النظار حتى وجدت وظيفة مستشار من الدرجة الثانية فى محكمة الاستئناف فعين فيها . ولم يلبث فيها طويلا ، ثم عين سر تشريفاتى لسمو الخديو ، فوضع للتشريفات نظاما وقواعد . ثم رقى الى وظيفة رئيس الديوان الخديوى . وما لبث أن تغيرت ثقة سموه فيه من غير ذنب أتاه الا حب محافظته على مبادئه واخلاص النصح لسموه ، فقبيل على ذلك بالابعاد والاحالة الى المعاش .. ثم تفرغ لأعمال الجمعية الخيرية الاسلامية التى له من الفضل فى ايجادها وبقائها القسط الكبير .

أما مذهبه السياسى ، فكان رحمه الله يرى رأى حزب الأمة ، ويعمل لنشر مبادئه ، وهو الاعتدال والدأب على أن تتسال الأمم الاعتراف بشخصيتها لتتال الاستقلال التام .

مصطفى كامل باشا

لا أريد أن أطيل القول في مصطفى كامل ، فحياته معروفة مشهورة .. ولكن أقول موجزا .

ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ورسيلته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته ، فصار بينهما التلازم الذهني والعرفي . فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير ، فانما تطري الوطنية . واذا قلت الوطنية فان أول ما يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل .. كأنما هو والوطنية شيء واحد !

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته في هذه المظاهرة التي لم نعرف لها في ذلك الزمان مثيلا ، فقد اشترك جميع أفراد الأمة في أمر واحد ، على رأى واحد ، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه ..

كل هذا دل على أن الشعور الذي قادهم ليس مذهبا سياسيا ، ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية ، بل هو أعلى من ذلك .. هو التضامن القومي ، والجامعة الوطنية .

ان مصطفى كامل كان تمثال الوطنية .. ولقد دعوت في اليوم التالي لوفاته على صفحات الجريدة الى اقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله في عمله ، وتخليدا لذكراه ، واعترافا من

الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها ، وتجسد لهذه الروح
الطاهرة .

وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات ، وفتحنا الاكتاب
على صفحات « الجريدة » وتكفلنا بالقيام بهذا العمل ، ولو أننا لم
نكن من حزية السياسي ، لأن مصطفى كان مصرياً لجميع المصريين .

قاسم أمين بك

كان قاسم أمين من أصل كردى ، لأن جده أمير من أمراء الأكراد ، أخذ ابنه رهينة فى الأستانة لخلاف كان بين الأكراد وبين الدولة العثمانية . وكان ذلك الرهينة هو المرحوم أمين بك والد قاسم بك . فجئ به الى مصر فى زمن اسماعيل باشا . ودخل فى الجيش المصرى ، حتى رقى الى رتبة أميرالاي ، وتزوج بكريمة المرحوم أحمد بك خطاب فكان أكبر أولاده قاسم .

ربى قاسم بك التربية المعتادة لأمثاله فى مدارس الحكومة . وكان ممتازا دائما بحده ذهنه وقوة ذكائه . فلما أتم دراسته بمصر أرسل فى بعثة الى فرنسا ، فأتم دروس الحقوق ودخل خدمة الحكومة فى سنة ١٨٨٥ وكيلا للنائب العمومى فى محكمة مصر المختلطة ، ثم لم يبق بها غير عامين حتى عين مندوبا بقلم قضايا الحكومة بنظارة المالية ، ثم عين بعد أشهر رئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم لنيابة طنطا ثم نائب قاض ، فمستشار فى الاستئناف .

من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسم أمين ، يجده تاريخيا عاديا غير مملوء بالعواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال ، فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها ما يجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة الحكم على الحوادث . ولكن على الرغم من ذلك ، كانت نفسه بطبيعتها مستعدة لأن تتعلم وتكمل من الملاحظة الذاتية والتجارب . فان قاسم قال :

« أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والأساتذة
وأعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى الأشياء والناس » .

كان قاسم بك اجتماعيا لا كبقية الاجتماعيين الذين يجعلون
أدبهم محافظ لآراء الغير . . فاذا حضرتهم المناقشة ، أو دعتهم
الكتابة الى موضوع اجتماعى ، أخذوا يسردون عليك محفوظاتهم
من المؤلفين السابقين من غير أن يكون لعقلهم فى الموضوع نصيب
من رأى . لا . . لم يكن كذلك أبدا ، بل كان مفكرا بالاصالة ،
نقادا لا يستغنى عن أفكار الغير ، ولكنه لا يعتنقها الا اذ اعتقدها ،
وصارت له بما قام فى نفسه من الأدلة اليقينية .

بحث قاسم أمين فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان
رأيه فيها أنها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية ، قوانين التحليل
والتركيب ، والنمو التدريجى ، والانتقال .

ويبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر على الخصوص ، فوجد
أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ، ووجد أن المرأة هى
الأساس الأول لبناء العائلة ، فأخذ يفكر كيف يرقى المرأة المصرية ،
وأطال فى ذلك التفكير ، وأخذ يجمع قوته وعدته ليفك هذا الانسان
الضعيف من سلاسل الأسر التى قيدته بها العادة ، وليهدم هذا
السجن العميق الذى حبس الاستبداد فى غيابته عقول نصف
المصريين ، وحجب ذلك الضوء الساطع ، ضوء روح السيدة
المصرية عن أن ينتشر بين سمائها الصافية وأرضها المخصبة انتشارا
يضىء للرجال طريق السعادة المنزلية ، ويوصلهم من غير عناء الى
ذروة المجد والاستقلال .

أجل . . ليفك أسر المرأة التى أوقعوها فيه باسم الدين ،
وما هو من الدين فى شيء فالدين أسمى مما يظنون ، فكتب « تحرير

المرأة ، ، ثم قفاه بكتاب « المرأة الجديدة » ، . كتيبها فهد ركن
سجنها ، وأضاء لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وجعلها
تحس أنها أم الرجل لها احترامه ، وأخته لها عطفه وحنانه ،
وزوجته لها منه محبة لذاتها واعتباره لمركزها . . كما هدى الى
ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

كتب فأجاد ، ولم يخشى منتقدا ولا لائما ، ولم ينزله خوف
الانتقاد عن فكرة من أفكاره ولا لفظ من ألفاظه . . ذلك لأنه يعتقد
اعتقادا كاملا بصحة ما كتب ، ويغريه الانتقاد في حب البلاد بآلا
يعبأ بالانتقاض الذى وجد لشخصه ، بل صيره متينا فى رأيه ومكينا
فى اعتقاده مجاهرا به فى كل يوم حتى ساعة وفاته .

أخذ قاسم على عاتقه حمل هذا العبء الثقيل . . عيه
السعى بالمرأة المصرية الى نظام العائلة ، وينظام العائلة الى الرقى
الاجتماعى المنشود ، وبهذا الأخير الى استقلال البلاد . .

وقد كان يربأ بنفسه عن أن يكون حاله كحال أولئك الأنكباء
المجازفين الذين اذا ضم أحدهم مجلس طرحت فيه فكرة أو مناقشة ،
انحدر السيل يفيض فى القول صوابا أو خطأ من غير تدبير كأن
معانيه وألفاظه لا قيمة لها فى نظره يخود بها اسرافا وتبذيرا .
فأما قاسم ، فان كل من عرفه أو سمعه يتكلم أول ما يخطر فى باله
أنه لم ينطق الا عن روية وفكرة طويلة سابقة . . شأن الرجل
المتحرج فى نمته لا ينشر بين الناس الا ما قام له الدليل الواضح
على صحته .

وان الذى يدرك معانى قاسم أمين ، أو أغراضه ، وتوجهه
بكلية الى العلم والفكر ، ربما يظن أنه كثير من العلماء والمفكرين
فاتر الطبع ، ساكن الأعصاب . . كلا ، لم يكن كذلك ، بل كان ملتها

فى الدفاع عن دينه ووطنه ، بل أن بينه وبين الباقون بونا بعيدا
قائهم اذا حضرتهم هذه الوطنية انفعلا ، ولكنه اذا جاءته هو
انفعل وانفجر انفعاله على قلمه ولسانه .

كتب « الدوق داركو » كتابا هجا فيه المصريين وأنهى على
بينهم ، وسفه أحلامهم وقبح عاداتهم وأخلاقهم ، فانبرى له قاسم ،
وضع كتابا باللغة الفرنسية مكيئا فى معناه ، ساحرا فى أسلوبه ،
قويا فى تركيبه . . دفع فيه عن الدين الاسلامى التهم التى هو براء
منها ، وقارن بين حال المسلمة وحقوقها فى الاسلام وبين حال المرأة
الأوربية المتعدية ، فكان لهذا الكتاب صدى فى عالم الكتابه
الأوربية .

وقابلت قاسم أمين بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل باشا
فقال : « ما أنت وهذه الحركة القائمة ؟ » . قلت : « على ما قد
قرأت » . قال : « انهم يقولون أنك بالغت فى وصف الروح الوطنية ،
وأنك تعلق عليها آمالا ، وقد لا تكون صادقة » . قلت : « والله
ما اخترعت ، ولا بالغت فيما كتبت ، ولكنى رأيت رأى العين شعور
التضامن يتجلى أمامى على رؤوس الناس فى الشوارع والطرق ،
فما فعلت شيئا أكثر من أنى أرسلت الألفاظ لتلبس هذا المعنى الطاهر
وسطرتها على صفحات « الجريدة » . . وهل أنت تقول أنى بالغت
مع القائلين ؟ »

فانبرى يقول : « انى أتهمك بالتقصير فى وصف هذه الحال
الشريفة . . ولو كنت أخفف عليك فى الحكم ، لقلت أنك فى نظرى
أميل الى التقصير فى هذا الموضوع منك الى الغلو والاغراق .
ان هذا الشعور الوطنى الشريف . . هذا المولد الحديث الولادة
الذى خرج من دم الأمة وأعصابها . هذا هو الرجاء فى المستقبل . .
هذا هو الذى يجب عليكم جميعا أن تباركوا عليه وتتعهدوه حتى
يصير نابا . . هنالك تنالون الاستقلال » .

أحمد عرابي باشا

في سنة ١٩١١ توفي أحمد عرابي باشا قائد الثورة العرابية التي نشبت سنة ١٨٨٢ ، أيام كنت صبيا في العاشرة من عمري . ولما كان غفر الله له من نوابغ المصريين وقد لعب دورا مهما في تاريخ مصر ، أود أن أسجل رأيي فيه في هذه المذكرات :

لقد كان مستقبل مصر طوع يدى هذا الرجل . . لمن أصاب الفكرة ، وخزم الرأي ، وأتقن العمل ، جعله مستقبلا سعيدا . . وإن عجل ولم يتدبر وانقاد لشهواته أو شهوات زملائه وقعت مصر في التعاسة . . ومن نحس الطالع أن الذي جرى هو آخر الفرضين !

لعرابي حسنات قبل الثورة . . له حسنة رضيت عنها الأمة وفرحت بها ، رضيها الخديو توفيق باشا ، وسار عليها العمل . تلك الحسنة الكبرى هي الدستور . . فالدستور المصرى من عمله ، ومن صنع يده ، ومن آثار جرائه . . طلبه عرابي ، لا بوصف أنه عسكري ثائر ، ولكن بوصف أنه وكيل وكلته الأمة في ذلك ، فإن عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من وجهاء الأمة ومشايخها . فأما كون القوة العسكرية هي التي كانت الآلة لتنفيذ إرادة الأمة في ميدان عابدين ، فذلك أن لم يكن مشروعا قانونا ، فانه مشروع يتقاليد الأمم ، لأنه هكذا جرى في كثير من البلاد . . وكان القائد للحركة الدستورية في كل بلد يحمل على الاكتاف ، ويهتف باسمه في الشوارع والنوادى والمجالس ، فعرابي حقق آمال الأمة بالدستور ، ولم يرتكب في ذلك جريمة ، ولم يسفك دما ، بل كانت الحركة في حقيقتها سلاما لايسا كسوة عسكرية .

لا يجوز لنا أن نغصط حق الرجل في اننا الدستور . بل
يجب علينا أن نردد له ثناء أبائنا يوم صدر قانون الانتخاب .
وقانون مجلس النواب . . فان كانوا بعد ذلك لم يستطيعوا حفظ
مراكزهم ، أو اذا كانت انجلترا أغلقت المجلس ، وألغت قانونه يوم
دخولها ، فذلك ليس من خطأ عرابي المباشر . ومع ذلك اذا كان في
الخريجات الأمر أو عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس ، ووجسغط
عليه بقوة السيف ، فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد أن يحسب له
كسب الدستور .

لعرابي سيئات بعد ذلك ، فيما يتعلق بخروجه على خديو
هاديء من غير مصلحة عامة للأمة ، وفي عدم تقديره حالة أمته
من القوة والضعف تقديرا صحيحا ، وفي الجهل بالمقارنة بين قوته
الحربية وقوة انجلترا ، وفي الاتخاذ ببعض المهيجين الانجليز ،
ويكلمات بعض نوابهم الأحرار .

عرابي له حسنة كبرى ، وسيئة كبرى . . حسنة عمدية ،
ومعظم سيئته خطأ وجهل . . فأما الخيانة ، فذلك أمر لا نعرفه
في زعمائنا المصريين المحسنين والمسيئين على السواء . وكان
من شأن هذه السيئة التي عوقب عليها أن تأكل الحسنة الأولى ،
التي أسداها وهي الدستور . فيصبح بعد ذلك على الأقل انسانا
لا له ولا عليه كبقية خلق الله . ولكن كان الأمر على غير ذلك ، فان
الرجل عاش في منقاه مذموما عند قومه . فلما جاء من منقاه ،
وهو شيخ أشيب ، لم يحترم له شيء من حسن نيته ، ولم يحفظ له
شيء من تاريخه الطيب ، بل اتهم ضميره بالخيانة ولا يعلم الضمائر
الا الله .

الرجل ما قابلته أبدا ولا جالسته مطلقا ، ولكني أظن أن سوء
مقابلته من أصحابه ومواطنيه غيرت قلبه ، وحطت من همته ، فأخذ

يدافع عن نفسه بعض الأحيان دفاعا أقل تناسبا مع اسمه وملكاته ،
ولا ينطبق على قائد كبير مثله قابله الدمر باليد العسراء ، وجعل
الفشل قيذا لجهاده فى خدمة بلاده .

لا أنكر أن عرابى أساء الى وطنه وأمته ، ولكن يجب أن
أسارع بأنه أساء غير قاصد لساءته . . من حيث أراد أن يحسن ،
وأضر من حيث أراد أن تنفع ، فله ثواب النية وعليه مسئولية
النتيجة .

نعم عليه مسئولية النتيجة . . ولكن ما أظنه منفردا بها ،
لأن الحكومة يجب أن تتحمل منها نصيبا أيضا ، ومجلس النواب
يجب أن يتحمل منها نصيبا . . كل على قدره ، بل أعيان البلاد
وتجارها عليهم أن يتحملوا من المسئولية شيئا .

يقولون أن عرابى أخافهم بحد السيف ، والواقع أننا ما سمعنا
أن رجلا واحدا قتله العرابيون ، لأنه تنبأ بسوء العاقبة ، وأنذر
وحذر ، ووقف لهم فى طريق الثورة موقف الخصم اللد . . فعرابى
لا يصح أن يكون وحده هو المسئول عن جميع الأعمال التى كونت
الثورة ، وأدت الى هذه النتيجة السوداء . . .

رحلتى الى أوروبا والى المدينة المنورة

- ★ فوائد السفر الى الخارج
- ★ ماكل باريس لهو
- ★ الانجليز فى بلادهم
- ★ ماذا رأيت فى مقام الرسول

فوائد السفر

فى السفر ما يملأ العقل راحة ، والنفس رضا ، ويفرج عن القلب هما • وما أكثر هموم المصرى • وكيف يرتاح ويسرى عنه الهم والنظام الاجتماعى مختل ، والأمة تشقى بأمراضها الثلاثة الفقر والجهل والمرض ، ومصر مازالت محتلة بالأجنىبى ، والحكم غير مستقر ١٩

فى السفر ما ذكرت من الرضى ، ولكن فيه أيضا ما يميمت القلب ، ويشغل الفهم اذا قارن المصرى بين ما كان يراه فى بلده من فشل الأمة فى حقها ، وبين ما يراه فى غير مصر من ديمقراطية صحيحة كاملة ، فيها الفرد يساوى الفرد حقيقة ، ولا فضل لأحد على أحد الا بمقدار نفعه لقومه • وليس لأحد من السلطة الا ما أرادت الأمة أن تعطيه لا هبة ولا مكافأة ، بل واجبا وفرضا يحاسب عليه حسابا عسيرا •

فى السفر ما روى فى الحالين ، وكذلك فى الحياة ، لا شىء
الا يدور النفع والضرر ، ولا حال بين النعيم والشقاء .

ليس على أن أدخل للقارىء من باب الشعراء ، فأتكلف
له وصف السماء وما تفعل الريح فى وجه الماء . ولكن على أن
أنقل له الوقائع فى رحلتى الى باريس سنة ١٩٠٩ كما رايتها
منذ نحو ثلاثة وخمسين عاما .

فى البحر كما فى البر الناس ، لا ينزلون عن شىء من
طبائعهم الأصلية ، ولا ماصار لهم بحكم العادة والتقاليد ، فإذا جاء
الغروب نزلوا جميعا كل الى مخدعه ليمضى وقتا غير قليل فى
تنظيف وجهه وما علاه من غبار ، وفرق شعره ثم لبس السواد
المعروف « بالاسموكن » للرجال ، وتلبس النساء خير مالديهن ،
وخيره واسع الطوق . وليس هذا عندى بمنتهى فى ذاته ، فما كانت
النظافة اثما ، ولا التجميل عيبا ، ولكنى أرى بوجه عام أن فكرة
الزينة تأخذ من الناس مأخذها حتى لقد يفضلها المرء على راحته ،
ويغلو فى المحافظة عليها حتى أصبحت من حاجاته ، وما هى منها
فى شىء . ولكن الغلو فى الزينة ، وارضاء شهوة التجميل بالعريض
تجعل للانسان حاجيا مالىس بحاجى ، فتزيد فى مقدار أسره ،
وتقوى حلقات القيود والعادات التى يربط بها نفسه فى هذه
الحياة .

حكم العادة

اختلف منا اثنان قال أحدهما : « ان العادة القومية هى
جزء مهم من مقومات الفرد من حيث كونه فردا فى أمة معينة ،
فالتنازل عن العادة هو تنازل عن إحدى المقومات ، وليس من
عادتنا أن نلبس ملابس خاصة للعشاء فما أنا بغير ملابسى » .

قال الآخر : « أنا بين قوم نعيش فيهم الآن ، فمن اللياقة أن نشاكلهم فيما يصنعون بما لا يذهب بالمروءة أو نحرمة العادات الشرقية . ولو أن لنا شركات ملاحية مصرية تنقل الناس من قارة الى قارة والتزمنا فيها عاداتنا لاتبعها الذين يركبون مراكبنا » .

على ذلك، كانت أغلبيننا نحن المصريين تتراوح في العمل بين هذا الرأي وهذا الرأي ، أعجبنى هذا التسامح من الفريقين الا أن المبادئ التي يطرقها لنا العلماء والكتاب كل يوم لتكون لنا أصلا للسلوك في هذه الحياة ، قل أن تخلو من الخطأ ، بل من النادر جدا أن تخلو قاعدة عامة من الاستثناء والتخصيص . جديقي الامام الشافعي اذ يقول : « ما من عالم الا وخصص » حتى هتفه القاعدة !

واني أسوق هذا الحديث لبيان ما استطرد اليه بحث المتناظرين من الأسف على فقدان ما كان لمصر من بحارة وبحريه لو كانت دامت وتبعت الرقى الزمنى لولدت كفاءات بحرية تكون مصدرا لتأسيس شركات الملاحة والنقل .

وصلنا الى « مرسيليا » ، فاذا هي هادئة على ما فيها من الاعتصاب الذي يدعو الى الأسف لما يسببه من الخسائر ، ولكنه من جهة يدعو الاعجاب بقوة التضامن بين عمال البحر ، وتضافرهم على الوصول الى حقهم مهما مسهم من جراء الاعتصاب من الفقر والعذاب .

وبعد ذلك وصلنا الى مدينة « ليون » مهد الجد والعمل ، وموطن التحرير وكثير من صنوف المصنوعات الفرنسية . وأهم ما لفت نظري في هذه المدينة هذه المرة ملاحظة بسيطة جدا أجعلها أساسا للمقابلة بين ما تعمل حكومة الأمة ، وما تعمل حكومة الفرد :

هذه المدينة العظيمة تتخللها جنات كثيرة في معظم ميادينها
.. بعضها صغير .. وان كان وارف الظل ، نافعا جدا ليكون
ملعبا للأطفال آخر النهار - وبعضها كبير جدا «كالروضة الكبرى» .
دخلت في كثير من هذه الرياض الجميلة التي يظهر من تخطيطها
وتقسيمها أنه ينفق لحفظها مبالغ طائلة . فما رأيت على أبوابها
بوابا يعترضني ، فيطالبني بدفع رسم كما كان يقف بواب الأزبكية
يطالب الصغير والكبير والغني والفقير بدفع رسم معلوم ! .. ان
حكومتنا غنية عن جمع رسم ضئيل .. مثل هذا الرسم لا ينفعها ،
ولكنه يضر الفقراء ، وهم الأغلبية العظمى من الشعب ، الذين
يحتاجون الى التمتع بالحدائق التي أنشئت من أموال الشعب .

ماكل باريس لهو

وصلت الى باريس . وفي هذه المدينة كثير من الأشياء غير أسباب اللهو ، ودواعي الطرب ، وميادين اللعب . . . ولكن بعض كتاب الشرق قد اعتادوا أن يصفوا ما ظهر لأعينهم لأول وهلة في شوارع الزينة دون ما بطن في جوف المصانع الكبيرة والصغيرة من المخترعات ، وما امتلأت به معاهد العلم من التقارير والبحوث في العلوم والفنون . فما كل باريس لهو ، ولا عيب عليها فيما به يرمونها . ولكن العيب على من يكتفى من النظر الى الأشياء بلمحة ، وفي الحكم عليها بمسحة من الظاهر .

كذلك كان يصنع بعض كتابنا ، وكذلك كان يطبق أغلب كتاب الغرب علينا الحكم بالظواهر وقد يكون ذلك بغلو ويبعد عن حدود المعقول ، ويقرب سياحاتهم من قصص ألف ليلة وليلة : يتفق لأحدهم أن يرى جماعته يصلون على النبي ، فينقل عن مصر أن معبودها « محمد بن عبد الله » !

لا يظننى القارئ أننى قد وقعت من المبالغة فيما أحذر منه ، ولكن بين يدي كتاب من صديق فرنسى جاء فيه أنه قابل انكليزيا على ظهر الباخرة انتقل بهما الحديث من موضوع الى موضوع حتى وصل العرب . قال الانكليزي وأكد تأكيد ذى الرابطة بين قومه وبين العرب : « ان العرب يعبدون الشمس !! » .

واشتدل على ذلك بأنهم يصلون لها عند الشروق وعند الغروب . . . !

وزارتني في باريس سيدة تشتغل بتحضير محاضرة عن وصف مصر ، ومن جملة ما أشكل عليها من المسائل الاجتماعية بل المسائل المتعلقة بتحديد مركز مصر السياسى ، هو : كيف أن النساء المصريات محجوبات عن الرجال غير المحارم ، ومع ذلك فانهن غير محجوبات عن الخدم والاتباع الذين هم بالضرورة أجنب عنهن؟ واستنتجت فكرتها هذه من كونها رأت في أبواب البيوت المصرية وأفنيتهما رجالا يروحون ويفقدون . ولما لم تكن تدخل الى باطن البيوت لتعرف أن هناك « حرملا » خدمه نساء ، و « سلاملا » خدمه رجال فقد حكمت حكمها على الظاهر .

أنظر كيف كان يجنى الظاهر على أمانة النقل وعلى الناس فى الحكم . . لا أنكر أن السائح من مشارق الأرض أو مغاربها اذا سأله عن قصده وكان من أهل اللهو أجابك انه يقصد باريس . ولكنى لا أنكر أيضا أن السائح يأتى من اليابان والصين وغيرهما ليتعلم على أساتذة باريس ، ويعرف منهم أسرار الحكمة وقواعد الحق والواجب وسبيل الاقتصاد .

أجل ان باريس تؤخذ عنها مودة الأزياء ، ولكنها تؤخذ عنها أيضا أسعار البورصة فى جميع أنحاء العالم . واذا كانت الأولمب ، والمولان روج وما بينهما من محلات اللهو ، فانها مدينة السوربون والكليات ، ومدينة التجارة والصناعات .

ولئن اشتهرت بجمال النساء وتبرجهن ، فقد اشتهرت أيضا بكاتباتها الفضليات . ولا يغرنك خفة روح الباريسى وميله الى النكات والمزاح فان فى نفسه ذكاء يتأجج لتحصيل العلم والنبوغ فيه .

ولا يدلك على ذلك أكثر من أن باريس تملك شهرتها هذه

من مئات من السنين ، فلم يتقلص مجدها ، ولم تسبقها غيرها من
المدائن الى صفتها الجامعة بين دراعى الجند ودواعى الهزل .

وقد زرت باريس فى سنة ١٨٩٦ و ٩٧ و ١٩٠٦ وفى غير
هذه المرات . . ويهمنى أن أسير هنا أننى كنت فى أول مرة زرت
فيها هذه المدينة أختلط بطلبتنا المصريين وأناقشهم وأتحرى
معلوماتهم وأتسمع على حالة أخلاقهم وسسوكهم الشخصى من
مخالطيهم . وأشهد أنى وجدتهم هذه المرة أكثر اقبالا على العلم
وأشد اقتناعا بالمسئولية التى يحملونها أمام ضمائرهم وأهليهم
وأمتهم .

آنست منهم أنهم يعلمون جيدا أنهم ما جاءوا باريس الا لينقلوا
العلم الى القاهرة ، وما تغربوا عن أوطانهم الا ليشرفوها ويجعلوها
قوية محترمة . لمحت فى وجوههم آمالا كبارا من حيث نشر العلم
فى مصر وزرع المبادئ العالية فى بقاعها الخصبة . وأقل همومهم
فيما يحاولون المسألة انسياسية . لذلك عجبت من مقدار جهل
حكامنا فى ذلك الزمان بسير هؤلاء الطلبة الراشدين ، وكيف كانوا
يظنون أن طلب العلم بباريس بركان الهياج والقلق ، وما هو
الا خير ونور وسلام .

الانجليز فى بلادهم

سافرت الى لندرة وأنا لا أعرف من الانجليزية ما يكفى لاستبقاء أبسط الأحاديث موضوعا ، ولكنى مع ذلك كنت معتمدا على أن اللغة الفرنسية معروفة هناك فى كثير من الطبقات خصوصا طبقة الكتاب والطبقة التى لا غنى للسائح عن محادثتها ، فان امثالهم فى الفنادق الكبرى يتكلمون لغتين أو ثلاثا احداها الفرنسية . وكان يذهب عنى الحيرة بعد ذلك أن لى فى لندرة وغيرها من المدن الانجليزية أصدقاء من المصريين .

فلما كنا فى كاليه الميناء الفرنسية انقلبت الحال فجأة حتى أن الحمالين الفرنسيين أخذوا يخاطبوننا باللغة الانجليزية ، وكانت الفرنسية قد غسلت من الوجود على شاطئ المانش ، فشق ذلك على رجل فرنسى كان معى فى العربة . وقد قال للحمال الذى بادرننا بالانجليزية : « نحن نعرف من الفرنسية ما يكفيننا للحديث عند الضرورة » . قالها ساخرا معتفا هذا الحمال الذى يعدل عن لغته لغير ضرورة ، فانقلب الحمال بفضل هذه الجملة فرنسيا يفهمنا ونفهمه .

وقد ذكرنى ذلك ببعض المصريين الذين يتكلمون الفرنسية أو الانجليزية بينهم فى بلادهم وما هم بذلك بمحتقرى لغتهم ، ولكنهم يتراطنون باللغة الأجنبية حتى يظنهم سامعهم أنهم قليلو الاعتداد بلغتهم وقوميتهم .

أنانية الانجليز

فرغنا من الحمال بهذه الملاحظة ، ودخلنا السفينة التي تجوز
بيننا المانش الى دوفر . . فأذكر أننى رأيت فى المركب رجلا هنديا
يجتنب الناس ، ويقترب منى . وكان كلانا يشعر بجاذبية نحو
الآخر . ولم يكن فى المركب من اللون الأسمر سوانا . . وكفى
بالتقارب فى اللون ، وبالشرقية جامعا بيننا نحن الاثنين . وكانت
حادثة الشاب الهندى « دنجرا » الذى قتل السير كورزون فى
لندرة جديدة العهد وقتذاك ، فوقع فى نفسى أنى سأشارك جارى
الهندى فى استقبال النظر الشرر من الانجليز الذين اشتهروا فى
العالم بأنانيتهم حتى اضطر حكيمهم « هوبز » الى أن يقول . .
ان أصل الخير والشر فى هذا العالم هو حب الذات ، وانه هو أساس
علم الأخلاق عنده . كما اشتهروا بالتضامن الشديد وحبهم لكبار
رجالهم مثل سير كورزون القليل .

عولت على الا أبعد عن جارى الهندى وقلت فى نفسى : « ان
عادة المصرى أن يكون ضحية لغيره . وما كانت بلادنا أيضا
الا ضحية يضحي بها على مصلحة القوى » . . للانجليز مصلحة
فى أقرب طريق الى الهند ، فماذا جنت مصر حتى تكون هى الضحية
لتلك المصلحة ، فقد قال أحد ساستهم يوم فتح قناة السويس :
« الآن لزم احتلال مصر »

وقد كان . . وعلى هذا القياس كان أمر بلادنا الجميلة
الخصبة فى التاريخ القديم . . لما ذكرت ذلك ذكرت أنى من قوم
هم ضحايا الكرم والصبر . توقعت أن يضايقنى الانجليز بصفتى
هنديا مع صاحبي الهندى . ولكن لم يكن مما توقعته شيء ،
فلم أر أحدا بأن عليه أثر لما قد ظننت من تأففهم لرؤية الهندى ،

فأكبرت أخلاقهم • غير أنى لما خرجت بعد ذلك الى البر • وكان يوم المرافعة فى قضية الهندي صرت أسمع نقلا عن المجالس صحة ما كنت أظن •• فان الهنود كانوا مضايقين من البوليس السرى ، وان كثيرا من الانجليز كانوا يكررون ما قاله بعض كبرائهم ان طرائق التربية الغربية — تربية الحرية والعلم — مفسدة للشرقيين ، وانه لابد لصالحهم (يعنون بالصالح •• رضاهم عن حكم الغربى فيهم وتسليطه على بلادهم) تركهم على ما هم عليه ، فان ذلك خير طريق لسعادتهم أو (دوام استعمار الأوربيين لبلادهم) •• !!

أمة صنعت مجدها

وجست خلال انجلترا • وكان أطول ما قطعت مسافة من لندرة الى ليفربول • يمر القطار فيها بقرى ومدائن لا يدل منظرها على حب الشذوذ ، ولا على الابتكار الذى أخذ من فكرة الأوربيين مأخذا عظيما حتى صار مقياسا لشخصية الفرد وعلامة على النبوغ ، فان الكاتب الذى لا يولد لغته أسلوبا جديدا لا يعد كاتباً • وكذلك الشاعر الذى لا يأخذ خياله من الطبيعة أفكارا حديثة ومتناصدا أبكارا لا يعد شاعرا عاديا • كذلك لا يلفت النظر الى الشيء الا غرابته وجدته ، ولكن على الرغم من ذلك رأيت المدن والقرى الانجليزية وقتئذ متشابهة جدا فى تخطيط الشوارع وارتفاع الأبنية وألوانها حتى كان يخيل للرائى أنها بنيت على فكرة المحافظة •• أو فى حكومة المحافظين على أن الفرد الانجليزى فى فكره وعمله مبتكر طبعاً أو كما يسميه أوربيو القارة « أوريجينال » •

مر بنا القطار بغير المدائن •• مر بحقول جميلة فسيحة قليلة الغلة معظمها كلاً ترعاه الأنعام ، والقليل مزروع حنطة ، والأقل منه مزروع خضرا وفواكه • فيخطر فى نفسى لشهد هذه الأرض القليلة الغلة كيف أن الانجليز بهذه الأرض أغنياء ؟ •

خطر لى هذا الخاطر السريع غير الناضج لأنى فلاح من قوم
كل ثروتهم مما تنبت الأرض ، ولم البث أن لحظت موارد الثروة
الانجليزية الطائلة من الصناعة التى كنا نحن المصريين نحتقرها
بعض الشئ ، والتجارة التى كنا نأبأها بعض الشئ - بسمت لهذا
الخطر ، وذكرت ذلك المثرى المصرى الذى كان لا يجلس اليه
أحد الا سأل : كم فدانا يملك ؟ . أو كم فدانا من القطن يزرع
هذا العام ؟ . وأمثال ذلك مما يشته عن فكرته فى أن قيمة
الرجل فى ثروته ، وأن كل الثروة هو ما يملك من الأرض وما يزرع
فيها من القطن ، فلقد كان مثلى مثل ذلك المثرى المصرى ، وذهلت
عن حقيقة اجتماعية من أكبر الحقائق وهى :

ان غنى الأمة وسعادتها ليسا فى خصب أرضها ولا فى صفاء
جوها ، واعتدال منطقتها ، وليس بضخامة مدائنها ، بل بمقدار
عدد المهذبين من أبنائها ، فهم الذين يبنون مجدها ، وهم الذين
يخلقون غناها . . نعم اذا أعوزتها خصوبة الأرض خلقوا لأمتهم
بعقولهم وعلمهم من الصناعة والتجارة والاعتماد على الذات والمخاطرة
فى سبيل المنفعة ثروة تفوق الثروة الزراعية أضعافا ومجدا طارفا
لا يطاواه المجد التليد .

تمثال نلسون

دخلت لندرة ، وأول ما يلفت النظر فيها تمثال نلسون ،
تمثال أقيم على قاعدة عالية جدا على غير المألوف بحيث لا يطاوله فى
مكانه الرفيع تمثال أمير من الأمراء أو ملك من الملوك ، فان رؤوس
أولئك مهما علت لا تطول ربع القاعدة التى يقف عليها نلسون
بقدميه . أجل انه كان فى الحياة رجلا عاليا ، فأعلى قومه مكانته فى
الممات على كل من عداه .

كذلك يجلب الانجليز رجالهم مادامت أعمالهم تشرفهم وترفع
أقدارهم على أقدار الذين نالوا الشرف بمجرد الميلاد .

لا يغشى السائح مجلساً من مجالس السمر في الأدب الا ترى
الانجليز يتحدثون عن شاعرهم شكسبير بلسان الفخر ، والاحلال
والاحترام . ترى نمثاله في المتاحف وتسمع ذكره في الأندية ،
وتشهد رواياته على المسارح ، ولم يمنع أنه كان ممثلاً من أن يكون
في قلوب الانجليز أعلى مكانة من ملوكهم الأولين .

هايدبارك والأزبكية

في أبناء الانجليز عادات تأصلت في نفوسهم ، وصارت لهم
أخلاقاً ، أزعج أنها هي وحدها السبب في قوتهم ... تلك القوة
المستفادة من جدهم في العمل وتقديسهم لمعنى الواجب . ومن أخص
ما لاحظت من تلك الصفات حرية القول والاستماع لكل قائل من غير
أن يصادر أحد حريته . من ذلك أني رأيت خطباء كثيرين يخطبون
في حديقة « هايدبارك » بعضهم واقف على الأرض ، وبعضهم يعلو
منبراً متنقلاً . . منهم الشيخ ومنهم الشاب ، بعضهم على مقربة من
بعض حتى نطقت عليهم سوء اختيارهم لهذه المراحة المنيعة للمكان ،
والمرح فسيح الأرجاء لا يضيق بألاف الخطباء . وتسير جماهير
الناس بهؤلاء الخطباء ، ويقف كل واحد منهم على الخطيب الذي
يعجبه ، فيصفق له مع المصنفين .

ليس الهايدبارك هذا منبراً خاصاً بأولئك الخطباء العاديين
الذين قد يبدأ الواحد منهم خطبته على فرد أو فردين أو ثلاثة ،
بل هو أيضاً منبر عام لكبار السياسة والخطباء المفومين ، فقد كان
غلاستون كلما ضاقت قاعة البرلمان بصوته العالي وأغراضه الكبيرة
عمد الى هذه الروضة العامة يخطب فيها الألوف من الناس ساعات

متوالية فيحول الأمة من فكرة الى فكرة .. ويخرجها من مقصد الى مقصد . وكذلك كان « كرهاردى » ونحوه من خطباء الانجليز الى اليوم ينظفون فى الناس من غير ملاحظة رسوم أو نظام أو اشتراط دعوة حتى تكون الأمة واقفة بواسطة هذه الألسن الرسمية على أحوال الحكومة ، فلا يفوت فردا من الأفراد أى مقصد من المقاصد الكبيرة للحكومة ، كاعلان حرب أو سلم ، أو تقريب بين أمتهم وأمة أخرى أو ضرب ضريبة عامة ، أو اعطاء النسب حق الانتخاب بحيث أن العامل البسيط فى لندن يعرف من خطب الوزراء والنسواب فى « الهايدبارك » طرفا أو نتفا من قواعد مصالح الأمة التى مصلحته الشخصية بعض منها ، ولكن كان وراؤنا ونوابنا - سامحهم الله - يجتنبون الكلام حتى فى سياستنا الداخلية الا ما يكون من التهامس فى الأذان فى الخلوات والنوادر بينهم وبين أخصائهم الأقربين .

هذا كله اذا عرفوا جليا مقصد الانجليز أو مقصد السراى فى مشروع من المشروعات . فهل منهم من يقف يوم الجمعة فى حديقة الأزبكية فيبين للناس مقاصد الحكومة فى أى أمر من الأمور العامة ؟

كلا ان رجال حكومتنا لم يكن يهمهم ايقاف الأمة على مشروع أو اقناعها برأى أو فكرة ولكن الذى كان يهمهم أن يكسبوا من مجلس الشورى كل مشروع يريدونه بأية طريق .

اذا كانت أمتنا ليست كأمة الانجليز ، فان من وزرائنا من تعلموا مع وزراء الانجليز فى مدرسة واحدة ، فهل من رأيهم أيضا أن « الشرق شرق والغرب غرب » ؟ أم هم فى القربى من الأمة لوزراء الانجليز .. زملائهم فى المدنية الحديثة .. مقلدون ؟

الى المدينة المنورة

فى سنة ١٩١١ وقبيل الحرب التركية الايطالية بليبيا
سافرت مع أبى الى المدينة المنورة . وان أنس لا أنس وقفتى فى
مكتبى لرداع ولدى . اذ وقف كلاهما على كرمى ليستطيع عناقى من
غير كلفة على هواه . ولئن أنكر على الرجل أن يصف المشاهد التافهة
العادية التى تقع لجميع الناس ، فإى من الذين يعطرون المقام الأول
لمشاعر الحنان بين الآباء والأبناء . وآلام الفراق والشوق الى التلاقى
وحب الأوطان ، والميل الى مسامرة الأشياء ومودة الأقرباء والأصدقاء ،
ورحمة الفقراء ، ومواساة الضعفاء ، ومداواة السفهاء ، واحترام
الكبراء . . تعجبني روايات هذه المشاعر . ولا أجد حقاً للذين
يحتقرونها بجانب مشاعر البسالة ووصف آثار القدرة والشجاعة ،
ومازق الخوف والفرع والصفات الاستثنائية التى لا تتفق الا لعدد
محدود جداً من بنى آدم لا يخطئهم العد . وأن الناس لمعدورون فى
الولع بقصص مشاعر البسالة لأنها غير عادية . وقليل أن يجد المرء
فى العادة لثة . ولكن تلك المشاعر العامة المتواضعة لا ذنب لها
الا أنها عادية . وان كانت فى الحقيقة هى المؤلفة لحياتنا اليومية ،
وهى التى بها ، ولها نحيا ونحب الحياة .

فما أنس لا أنس وقفة وداع ابنى ، اذ ينظر أكبرهما الى
بملاء عينيه مفتوحتين جامدتين ، يسألنى كم يوماً أغيب فى هذه
السياحة ، فأجيبته ثلاثين ، فإذا أنا بابنتى الصغرى وهى لا تجهل
عد الأيام تجول فى عينيها قطرات الدمع ، فقلت لا يل شهراً واحداً .
ولولا أنى كنت عزمته نهائياً على السفر وارتبطت به لأرجأته الى أن

يعتاد ولداى على خبره فيخف عليهما أمره ، لأنه كان فجائيا
لا يعلمانه الا يوم سفرى . . تركتهما ولا شغل لى فى الساعات
التالية الا تدبر هذا الشعور واستقصاء أصله فى نفس الحى ،
ومقدار فائدة الطبيعة من ايجاده فى قلوبنا الضعيفة .

جعلت أتساءل : كيف يغفل والد عن ولده المحبوب بهذا
المقدار ، فيتركه فى معتزل الحياة البشرية أعزل لا سب.لاج له من
العلم والنزيرة " عجبت لرجل يحب ولده حبا جما ، فيجعل حبه
وقفا على ما يضره دون ما ينفعه . يأمره بالكذب لتحصيل خير مزعوم
أو دفع شر موهوم ، والكذب مهلكة ، يطبعه على الملق والرياء والنفاق،
وكلها مهالك . يضرب له بفعله شر الأمثال من الاستهانة بالكرامة
وحب البقاء الى حد الجبن ، والتبرم بالعهود الى حد اللؤم . فاخلق
بهذا الحب الأبوى أن يسمى « الكره الأبوى » .

أبناءؤنا أجزاءنا وصنع أيدينا . هم بررة اذا أردنا ، وهم
على ما عودناهم . والمرء أسير عاداته . انهم ان قست قلوبهم ،
وفسدت طباعهم وكسدت عقولهم ، فالمستولية فى ذلك على
ما أورثناهم اياه فى دمائهم وأمزجتهم ، وما دعوناهم اياه بعد ذلك
من انتهاك حرمت الفضيلة ، وما قصرنا عنه من تصحيح عقولهم
بتعليم العلم . واذا نحن تدبرنا وتحرينا الأصلح لمستقبلهم ،
فربيناهم على الفضيلة ، وصححنا بالعلم أحكامهم على الأشياء ،
وهذبنا أذواقهم ، وقوينا فى نفوسهم ملكة الأخذ عن الغير وملكة
الفهم وملكة الانتاج ، أخرجناهم الى الحياة العملية مسلحين يغلبون
ولا يغلبون .

ما أنس لا أنس تلك الوقفة وذكرها يثيرها فى نفسى نداء
الصغار « يا بابا » و « يا أبى » و « يا أباه » تبعا للهجات البلاد ،
فاشعر بفيض من الحنان لا يدع لغيره من المشاعر محلا من قلبى الى

أن أرجع النظر فى هذه الحقيقة المعنوية الحسية معا ، فلا أقهم معنى ولا أرى وجهها لأولئك الذين يدعون الله لأنفسهم أو عليها بالعقم أو بقله الولد لأنهم يخافون الاملاق ، وما يتمنونه أقبح من الاملاق . وما حر أحدهم أن يبقى فقيرا بماله غنيا بولده . فيا طالما كان الولد قرة العين ومدفع الفقر ومناط الراحة والهناء ، أو ليس من الحمق أن يخشى الفقير كثرة الولد ليخسر زينة الحياة الدنيا بطرفيها : المال والبنين ؟! ذلك هو الخسران المبين .

من هؤلاء أيضا المتفلسفة المتطيرون الذين يأخذون على ظاهرة قول ملك المفكرين أبى الهلاء المعري . يجأرون بالشكوى من سوء العيش ، يغذون فى تقدير متاعب الزواج ، ويحبسون على احتمال العناية بالأولاد ، ويفضلون الرهبنة والعقم لا خوفا من الفقر ، ولا فرارا من الذل ، بل حرصا على راحتهم وارضئاء لأنانيتهم . يأخذون من الوجسود ولا يعطون ، يستدينون ولا يؤدّون . كأنى بأولئك لا يرون الولد الا ثمرة لذّة طائفة ، ولا يشعرون بمكانة الأبوة وطهارتها ولذتها التى لا تعدلها لذّة عند الذين أوتوا قلوبا تعرف أن تحب ، وصدروا رحبة تسع اللذائد والآلام على السواء ، ونفوسا كبيرة تستحى أن تكون مدينة للوجود لا دائنة ، مستهلكة غير منتجة . أولئك هم الآباء الأكفاء لشرف الأبوة ، وأولئك هم أسعد الانسانية الأكرمون .

في مقام الرسول (ص)

ولا أريد في الحديث عن زيارتي للمدينة المنورة أن أتصدي لوصف معاهدها قديمها وحديثها ولا أخوض في وصف الحرم المدني والحجرة الشريفة ، ولا أنقل طرفا من العبادات ، لأنني إذا فعلت لا أكون إلا مكررا لما ذكره الأستاذ الفاضل لبیب البتانونی فی رحلته المعروفة .. غير أنني أنقل هنا بعض ما شعرت به نفسي في مقام الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فأقول :

متى خرج المسافر من « تبوك » مستقبلا الحجاز ، موجهها وجهه نحو المدينة موطن الهجرة ، ومهبط الوعي ، ومقام الرسول (ص) ، تنفعل نفسه انفعالات شتى ، مرجعها الى طبيعة الأرض التي يمر فيها من « تبوك » الى مدائن صالح الى المدينة المنورة . سهول قليلة مجدبة ، وجبال كثيرة جرد مختلف ألوانها ، لا ترى عليها شجرا قائما ، ولا نابتا ، ولا طائرا ، ولا شيء الا الفضاء والسكون . منها جبال حمر وسود وزرق ضاربة الى الخضرة كلها موحشة لا يأنسها الا محطة السكة الحديد المسافة بعد المسافة . ان تجردت عن جمال الطبيعة المعروف لدينا ، والمصطلح عليه بيننا ، كجنت دمشق ، أو مزارع سهل البقاع ، أو مختلف مناظر لبنان ، فقد بقي لها من الطبيعة جلالها . ولا شك في أن الجلال قد يكون له في النفس ما يفضل أثر الجمال . تعطيك هذه الطبيعة الجرداء المهيبة اكبار الصعوبات التي لاقاها النبي العربي محمد بن عبد الله في سبيل القيام بتبليغ رسالته في هذه المناطق المترامية الأطراف العديمة الماء ، النادرة العشب ، الكثيرة الأوعار والأجبال . فاذا وصلت الى

مدخل المدينة تكتنفها الجبال ، ولحظت على الشمال دار عثمان بن عفان ، ثم رأيت مقام سيدنا حمزة نحت جبل أحد ، على قرب من مصرعه ، ثم أشرفت على المدينة ورأيت القبة الخضراء المضروبة فوق مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ثار في نفسك ثائر ذكرى ذلك المجد العربي القديم ، وأشرق على روحك نور تلك المبادئ الشريفة التي كان هذا الحرم مهدا ، ومصدر تشعها على أطراف العالم من أقصاه الى أقصاه . هنالك تعذر الذين يقولون : رأينا النور من المدينة فوق القبة الخضراء يشق طبقات الهواء الى السماء . لم نر ذلك النور الحسى بالعين الباصرة ، ولكن هناك نورا لا يحتاج في انبعائه الى هواء يحرك ذراته وينقلها ، ولا الى أجسام ينعكس عليها نور العلم والفضل ، نوري الهدى . انهم لا يرون نورا حسيا كما يقال وكأنهم يرون نور الهدى يسعى بين أيديهم وبايمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا انك على كل شيء قدير .

دخلنا الحرم المدني لأول مرة من باب السلام في زحام الزائرين مختلفي اللغات والألوان والأزياء والأجناس ، دخلنا ذلك الفناء الرحب ، فناء الرجل العظيم ، والنبى الكريم ، والرسول الأمين ، فما هي الا نظرة الى مانحن فيه ، وتذكرة لما مضى من الأثر حتى يمتلىء القلب هيبة من الحضرة العالية ، ويأخذ النفس الخضوع حتى يبتل الجبين عرقا من الوقوف أمام مقام من لا يطاوله في مجده مطاول ، ولا يضارعه في مقامه واحد من بنى حواء . فكلهم لديه سواء ، مغترف من بحر علمه ، ومستنير بهديه ، أو معترف له بسؤدده ورفعة مقامه . فالذين آمنوا بمحمد وما أنزل عليه ، يرونه بحسب سيد الخلق على الاطلاق ، والذين لم يؤمنوا ، لا يجادلون في أنه الرجل كل الرجل فضلا وكرما . والشارع الحكيم أحاط بالعظائم والدقائق من أحوال الناس ، والشجاع عديم المثال . هاجر الى المدينة وهو لا يملك من الدنيا الا نفسه وصحبة صديقه وهو على هذه الحال ،

وفى تلك البلاد المجدية وبين الاعراب لد الخصام . على هذه الحال
قد أخاف الاكاسرة والجبابرة أصحاب الأموال والعروش والجنود
أولى القوة بكل أسبابها ومظاهرها . ولم يكن له مما فى أيديهم
شئ ، ولكن الله آتاه العلم والحكمة والنبوة والرسالة ، فكان له
النصر ، وما النصر الا من عند الله .

فمن ذا الذى يعرف تقدير النسب بين الأشخاص والأشياء ،
ثم يزرو قبر محمد ، ولا تخضع نفسه لهيبته ، أو لا يقصيه الأدب
عن مس المقصورة أو اطالة المكث على مقربة منها ، الا على نحو ما يصنع
فقيه المسلمين عبد الله ابن عمر ، اذ كان يعقل بعيره فى خارج الحرم ،
ثم يدخل فيقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك
يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبى . ثم يقفل راجعا من حيث أتى .! .
على انى مع ذلك أجد عذرا لهؤلاء العوام الذين يقتربون من الحجرة ،
ويخرون على الأعتاب للأذقان سجدا . ثم يتمسحون بقوائمها ،
ويدخلون شفاههم من الشباك يسرون كلاما طويلا أو قصيرا . فان
المحبة قد تجب كل ما عداها من الملكات فى تلك العقول ، التى نمت
فى أحضان القلوب لا فى أحضان العلوم فيذهلون عن تقدير النسب ،
ويجاوزون حدود اللياقة . ومع ذلك فان من الاعراب من لاحظت من
هيئتهم الوقوف عند حدود التأدب ، سواء كان ذلك فى زيارة قبر
الرسول ، أو فى زيارة الشهداء .

من ذلك أننا زرنا نحن وأصحابنا مقام سيدنا حمزة صبح يوم
زيارته . فلما فرغنا من زيارتنا وقطعنا ميدانا فسيحا من الرمل ،
حيث كانت عرباتنا تنتظرنا فى الجهة المقابلة ، اذا بنا نرى الاعراب
زمرا راكبين جمالهم حاملين أسلحتهم ، كلهم يعلق فى كتفه بندقية ،
ويشد فى وسطه خراطيش رصاص وقد يكون الى جانبه غدارة
أو خنجر ، وسيفه الى جانبه . مع ذلك كله وقفنا ننظر ماذا يفعلون ،

فاذا هم يفدون من المدينة جماعة جماعة ، ينتظر بعضهم بعضا في ذلك الميدان الفسيح تحت مسجد سيدى حمزة حتىكملوا أربعمائة هجان وقفوا وأمامهم علم أخضر يظل رجل منهم هو خليفة السنوسى فى مكة والحادى يحدو لهم شعرا بصوت جميل ، وهم يرددون عليه هذين البيتين :

سيدى حمزة وياعم الرسول قد أتينا فى حماك
نرتجى منك الشفاعة والقبول لا تخيب من أتاك

يردد هذا الجمع الكبير هذين البيتين فى آن واحد على نغمة ما أجملها ، فما علمت غناء فى مثل هذا الظرف أشجى نغمة ولا آخذ بالقلب من هذا الغناء الذى سمعته . يفعلون ذلك على بعد من المسجد تحية القدوم ، ثم يترجلون فيدخلون للزيارة . وسألت عنهم . . ف قيل لى أن الخليفة السنوسى حضر من مكة للزيارة فى هذا الموسم ، مولد سيدى حمزة ، وليلة المعراج . . فلا يحل بأرض قبيلة من قبائل الطرق الا دعوه للاستراحة عندهم ، ثم يتبعه من مريديه جماعة ، فلا يصل المدينة الا وهو فى مثل هذا الجيش من العربان المسلحين من تلاميذ الطريقة السنوسية . بالله ، ما أفعل الاعتقاد فى القلوب ، وما أقرب البدوى من السير وراء اعتقاده .

على هذا الحرم الشريف تخيم السكينة ، فتزيده هيبة على هيئته ، ووقارا على وقاره . ومع انه غاص دائما بالناس من مختلفى الأجناس . . لاتسمع فيه صوتا فيما بين أوقات الصلاة الا تقارير المدرسين فى زوايا الحرم ، وحفيف الحمام تنقل من الحصباء الى ذرى الحرم ، لايهولها كثرة الناس ، فهى فى غاية الانس ، لا تعرف كيف يهاج الطائر ، ولا تتصور الوقوع فى حبال الصيادين ، نواعم لاتعرف بؤس العيش ، آمنة لا يأتيا فيما حرمة النبى خوف ، فانه حرم من دخله كان آمنا . فاذا جاء وقت الصلاة انقلب السكون

ضجة ، وهرع كل من فى المدينة رجالا ونساء الى الحرم لشهود صلاة الجماعة .

وللنساء هناك مصلى خاص بهن لا يتعدينه الا اذا كثر عنه عددهن ، وضاق عن احتوائهن كما كان ذلك وقت صلاة العصر التى بعدها ، احتفل فى صحن الحرم بقراءة قصة المعراج . وقتئذ كان كثير من الناس فى المسجد الى جانب الرجال . . على كره من أغوات الحرم على ما نظن ، فانى رأيت بعضهم يحتفظ جدا بجعل النساء لا يتجاوزن حدود مصلاهن الا للزيارة . ولما قرئت قصة المعراج قام بعض الأعراب الجالسين على الحصباء فى صحن المسجد يحصب بعضهم بعضا وهو يقول (حجيننا حجيننا) كأنه يشهد الناس أيضا على زيارته للرسول فى هذا الموسم .

وللناس فى المدينة عناية بحضور الدروس ، فقد تجد فى الحلقة ، من غير الطلبة ، كثيرا من المستمعين . أما نحن فقد كنا نغشى الوقت بعد الوقت درس الأستاذ الكبير لشيخ حمدان الويسى مدرس الحديث والبيان بالحرم الشريف . ولمناسبة ذكر المدرسين يمكننا أن نصرح بأنهم يدرسون هناك التماسا للبركة ، لا يطلبون على عملهم جزاء ولا شكورا .

غير أن من ألزم الأشياء تشجيع العلم فى منبته ، أى فى الحرم المدنى . وذلك قل أن يكون الا بمكافأة أولئك المدرسين ، لا ليزيد اجتهادهم فى تعليم الناس شريعة محمد حول مقامه الكريم ، ولكن لتستمر مجاورتهم ، لأن المدرس مهما كثر اجتهاده اذا ضاق به العيش فى المكان الذى يقطنه اضطر اضطرارا لهجرته ، وليس ذلك من مصلحة العلم . حقيقة أنهم يؤتون بعض الرواتب سواء من الدولة أو من الوقف ، ولكنها رواتب زهيدة جدا لاتفى بشيء من حاجات المدرس المنقطع للتدريس . بدئت فى ذلك فتلقفت أطرافا من

الروايات مرجعها جميعا الى أن المزورين المطوفين وهم الذين يتصدرون لتعليم الناس كيف يزورون ، وماذا يقولون وماذا يدعون ، هؤلاء وهم من غير العلماء بالدين ولا بالتاريخ ، ولا بغيرهما ، يأخذون هذه الوظائف بالوراثة ، وما بلغنا من غير سند ، انه اذا جاء الحرم رزق يخصص للعلماء ، قال المطوفون أنهم هم العلماء ، فاذا كان للأشراف قالوا أنهم هم الأشراف .

مصر والحرب التركية الايطالية

وما كدنا نعود من المدينة المنورة - أبي وأنا - حتى كانت الحرب التركية الايطالية قد نشبت في ليبيا ، وأغار ايطاليا على طرابلس ، فظننت أن هذه فرصة لتحقيق ما كنت أدعو اليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ، وقد أخذت أنبه - على استحياء - الى واجب مصر في هذه الحرب وهو أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ، ولا تستطيع أن تنقذها من الاحتلال البريطاني الذي لا يمكن الخلاص منه الا بتضافرنا والاعتماد على أنفسنا .

وقد أغضب هذا الموقف بعض الناس ، ولكني لم ألتفت الى غضبهم ، واتفق أن جاءني كتاب من تاجر بدمياط لا أعرفه ، يقول فيه ان الطليان احتجزوا له سفينة محملة بالأرز في عرض البحر ، لأنها تحمل العلم التركي ، وهو علم مصر ، فذهبت الى حسين رشدي باشا وزير الخارجية وقتئذ وأطلعته على الخطاب ، وطلبت اليه التوسط للإفراج عن السفينة ، فخاير ممثل ايطاليا في مصر ، فافرج الطليان عنها ، وعادت السفينة الى صاحبها .

الفصل التاسع

مع سعد زغلول

والخديو عباس

- ★ العلم المصرى والاستقلال
- ★ تأليف أول وفد مصرى فى عهد الخديو عباس
- ★ الوطنية ضريبة لا منحة
- ★ سعد زغلول ممثل المتعلمين الأحرار
- ★ طلبوا وحدة مصر وسورية سنة ١٩١٢

العلم المصرى والاستقلال

فى سنة ١٩١٢ استقال سعد زغلول من وزارة الحقانية وخلفه عليها حسين رشدى باشا ، وتسولى يوسف وهبه باشا وزارة الخارجية ، فذهبت الى رشدى باشا اطلب اليه أن يبدل بالعلم العثمانى علما مصرىا يرفعه المصريون على سفنهم وبواخرهم اتقاء لمثل ما وقع لتاجر دمياط . وكان وهبه باشا حاضرا الحديث ، فقال ان هذا العمل سابق لاوانه . ثم رجعت مرة أخرى الى رشدى باشا اطلب اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية ، وأن تنصب الخديو ملكا عليها ، ويعترف لها الانجليز بهذا الاستقلال ، ورجوته باسم حزب الأمة أن يعرض هذا على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر . وطلبت اليه الا يخبر محمد سعيد باشا رئيس الوزارة فى ذلك الحين . وبعد يومين استدعانى ، وأخبرنى أن الخديو مسرور جدا من هذه الفكرة . وأما اللورد كتشنر فقد رفضها لأن انجلترا لا تريد مضايقة تركيا ، وقال لى انه أخبر بها .

سعيد باشا ، فقال : « هذه هي الخيانة العظمى » . فذهبت الى اللورد كتشنر وحادثته في الأمر ، فقال لي :

« لقد بسطنا يدينا لتركيا ، فبصقت عليها ، وولت وجهها شطر المانيا . ولو أنها كانت قبلت مودتنا لنغير الموقف كثيرا . . . ومع هذا فاني لا أجد الوقت مناسباً لقبول فكرتك » .

تأليف أول وفد مصرى

رجعت الى رشدى باشا بعد ذلك ، وكان قد قابل الخديو مرة ثانية ، فقال لي :

« ان الخديو يرى أن يؤلف وفد من عدلى باشا ، وسعد باشا ، وأنت للذهاب الى لوندرة . للسعى لتحقيق هذا الأمر مباشرة مع الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى . وعليه النفقات » ! . .

واجتمعنا فى بيت سعد زغلول باشا نحن الثلاث لندبر الخطة ، وأخذت أنا أنشئ حملة فى هذا المعنى تحت عنوان : « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » .

هذه الأحداث امتدت أسابيع ، فى أثنائها قام الأمير عمر طوسون ، وبعض الكبراء والأعيان لجمع التبرعات لمساعدة تركيا فى هذه الحرب ، وأخذوا يطوفون البلاد لهذا الغرض ، ويشترون المؤن والأسلحة ويرسلونها للجيش التركى بطرابلس .

وكانت الصحف المصرية - عدا « الجريدة » - تشجع هذه الحركة ، وتنشر أخباراً عن هذه التبرعات تنبئ أن الأمة كلها مع تركيا ، فتداولنا نحن الثلاثة - سعد ، وعدلى ، وأنا - فى هذا الموقف العسير ، لأن الأمة وهى بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها ، لا يمكن أن تريد الانفصال عنها . ولهذا لم ينجح المشروع ، وسقط فى الماء .

استقالة سعد زغلول من الوزارة

فى ابريل سنة ١٩١٢ استقال سعد من وزارة العدل التى خلفه عليها رشدى باشا فى وزارة محمد سعيد باشا . وقد وقفت الى جانبه فى هذه الاستقالة التى تسببت عن حادث - لا داعى لذكره - يهم عابدين وقصر الدوبارة على السواء . وكان الطرفان متبرمين بسعد لصراحته التى كان يبديها فى مجلس الوزراء ، وصلابته فى الحق والعدل ، وحرصه على أداء واجبه ، وأنا من الذين ينتصرون لاستقالة الوزراء والموظفين اذا لم يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم ، لأنى أعتقد أن الوظيفة مهما يكن نوعها ضريبة على الموظف ، لا منحة له . فاذا عجز بأى سبب عن ان يؤدى الى أمته أكثر ما يستطيع أدائه من خدمة حقوقها وتحقيق المبادئ التى يعتقد صلاحها ، فالواجب عليه أن يستقيل ، وتكون استقالته مشرفة لشخصه ، مشرفة لقومه ، ودرسا نافعا للناس ، ومثلا صالحا للصدق والاخلاص فى خدمة المجموع . وليست الوظيفة لمصلحة الحاكم ، ولكنها لمصلحة المجموع . وان السلطة التى فى يد الموظف انما هى لمصلحة الأمة لا لمصلحة شخصه ، ولا يجوز أن يكون منها لمصلحة شخصه شئ الا شعور الرضى - ذلك الشعور الذى يحسه الرجل عندما يقوم بالواجب عليه لقومه . فمادما نصدر عن هذه القاعدة ، فلا عجب ان نصبنا أنفسنا أنصارا. لفكرة استقالة الوزير أو الموظف كلما وضعت العراقيل أمام حريته فى العمل ، فأصبح يشعر بأنه لا يؤدى للأمة أكثر ما يستطيع أدائه من الخدمة ، بل قد تطرق الغلو الى اعتقادنا هذا ، فحعلنا. لانكره استقالة الرجل العامل ذى العقل الناضج والارادة القوية من خدمة الحكومة ولو لسبب شخصى لا علاقة له بالعمل ولا بالحكومة ، لأننا فى بلادنا لم نكن قد وصلنا بعد الى الموازنة بين الأمة والحكومة فى عدد الرجال الأكفاء المستعدين لأن يبنوا بأيديهم مجد أمتهم .

ليس هذا وحده ما فسر انتصارى لاستقالة سعد زغلول في ذلك الحين ، بل أضيف اليه انه استقال وترك الوزارة بين الشناء والاعجاب ، وألقى درساً نافعا للحاكمين والمحكومين على السواء . فقد دخل سعد زغلول الوزارة بين تصفيق الأمة بأسرها واستحسانها . ولا معنى لاجماع الطبقات على استحسان دخوله الوزارة بكل ما عهدنا لوزير غيره عند تعيينه الا ليكون ناصراً للأمة ، مدافعاً عن الحق متشدداً فيه .

ممثّل المتعلمين الأحرار

كان « سعد » قد دخل الوزارة ليمثّل فيها طبقة المعلمين الأحرار الذين ليس على عقولهم سلطان الا للحق ولا على قلوبهم الا حب الوطن ونفعه ، فحقق في المعارف سلطة المصري ، وملاً كرسي الوزير وتمكن بقدرته وعلو نفسه من وضع مستشار وزارته عند حد القانون ، وسوى بين الموظفين الأجانب والوطنيين ، وحقّق آمال الأمة في أكثر ما طلبت ، فجعل التعليم باللغة العربية ، وجعل لغة التعليم هي لغة الامتحان ، وأعاد عهد البعثات ، وجعل للنظمات المدرسية قوانين لا بد من عرضها على مجلس شورى القوانين الى غير ذلك من المشروعات التي أعادت الى المعارف عهد وزيرها المرحوم علي مبارك باشا .

وكان من أعمال سعد انشاء مدرسة المعلمين ، ومدرسة القضاء الشرعي التي وجد في انشائها صعوبات جمة كانت محكاً لشجاعته الأدبية ، وقدرته الوزارية ودهائه السياسي ، فلما تولى وزارة الحقانية لم يفرط في حقه بصفته وزيراً ، ولم يكن فيها بأقل غيرة على اقامة العدل منه في نظارة المعارف على نشر التعليم حتى كان دفاعه عن اعتقاده مجلبة لمخالفة السلطة وتبرم الخديو والانجليز به .

وقد اتهم سعد في استقالته بأنه قد نقصه الدهاء اللازم
للوزير لارضاء السلطة . وهي تهمة عجيبة . على أنه نجح كثيرا
في حمل السلطة على الرضى برأيه وتحقيق مشروعاته .

ومهما قيل في ذلك الزمان من أن الوكالة البريطانية كانت
تعاضده ، فمن المحقق أن الرجل كان في كل أعماله لا يخالف
اعتقاده ولم يداج فيها ، بل كان يدافع عن رأيه أمام السلطة
الشرعية والسلطة الفعلية حتى انه لما اتفقا معا عليه لم يتحول عن
موقفه ، وفضل الاستقالة المشرفة التي قال عنها بعضهم ان
استقالته تعتبر استقالة للوزارة .

وحدة مصر وسورية

فى نحو ستة ١٩١١ ظهرت لأول مرة بوادر ما يسمونه « البنارابيزم » أو الجامعة العربية ، وفى هذا الحين وقد على مصر رجلا من أعيان الشام ولبنان ، هما السيد شكرى العسلى من دمشق ، والسيد ثابت من أعيان بيروت ، وكانا نائبين فى مجلس المبعوثان باستامبول . وكان الغرض الذى جاء من أجله السعى لضم سورية الى مصر . . . وقد لقيانى مرارا فيمن لقا من المشتغلين بالسياسة وأهل الرأى . ولم آكن متفقا معهما فى هذا الرأى لا لتعذر هذا الطلب فحسب ، بل لأنى لم أره فى مصلحة مصر . وأذكر أن السيد شكرى العسلى كان متحمسا لفكرته الى حد أنه كان يدافع عنها بصراحة غلبته على كل اعتبار حتى قال لنا أنا وعبد العزيز فهمى باشا ومحمود بك أبو النصر فى مأدبة بمنزلى :

— مصر فيها مال وسورية فيها رجال ! . .

وذلك فى مقام التدليل على فائدة وحدة سورية ومصر . وقد انتهى الأمر بأنهما لم ينجحا فى هذا المسعى .

وكننت منذ زمن طويل أنادى بأن مصر للمصريين ، وأن المصرى هو الذى لا يعرف له وطنا آخر غير مصر . أما الذى له وطنان يقيم فى مصر ، ويتخذ له وطنا آخر على سبيل الاحتياط ، فبعيد عليه أن يكون مصريا بمعنى الكلمة . وقد دعوت السوريين فى مصر الى أن يسجلوا أسماءهم فى المحافظة ليكونوا مصريين . وبعث الى شكور باشا مدير بلدية الاسكندرية ، وعبد الله صفيح باشا مدير المطبوعات بالداخلية يعززان هذا الرأى . ولم أقصد السوريين

فقط ، ولكنى كنت أريد أن يتحمل كل قاطن فى مصر من الواجبات ما يتحمله المصريون لتحقيق القومية المصرية . فقد كان من السلف من يقول بأن أرض الاسلام وطن لكل المسلمين . وتلك قاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حوالىها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويجب أن يكون أفراد كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الأقطار المفتوحة ليصل بذلك الى توحيد العناصر المختلفة فى البلاد المختلفة حتى لا تنقض أمة من الأمم المفتوحة عهدها ، ولا تبرم بالسلطة العليا ، ولا تتطلع الى الاستقلال بسيادتها على نفسها . أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لنفوذ الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لا المهاجمة ، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من أن تنمحي جنسيتها ، ويفنى وجودها ، فان أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال .

ولهذا أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الاسلامية وأطماعها ، فلم يبق الا أن يحل محلها المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود ، وهو مذهب الوطنية .

لا يفهم مما أقول أننى كنت أدعو الى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين ، بل على ضد ذلك كنت أدعو للجامعة المصرية . دعوت الذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى كسبوها بالإقامة فى مصر أن لا يفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب الى هذه الجنسية الشريفة . يقيمون بأجسامهم فى مصر ، وعقولهم وقلوبهم تتجه غالبا خارج حدودها الى الأوطان التى ضنت عليهم بخيرها .

ان مصريتنا تقضى علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا وأن نكرم
أنفسنا ونكرم وطننا فلا ننتسب الى وطن غيره ، ونخصه بخيرنا ،
والانتساب الى مصر شرف عظيم ، فقد ولدت التمدن مرتين ، ولها
من الثروة الطبيعية والتاريخية ما يكفل لها الرقى متى كرم أهلوها ،
وعزت نفوسهم ، وكبرت أطماعهم ، فاستردوا شرفها وسموا بها
الى مجد آبائهم الأولين .

أول نقابة للصحافة

فى نحو سنة ١٩١٢ دعونا الى تأليف نقابة للصحافة المصرية .
وقد استجاب الصحفيون على اختلاف ألوانهم الى هذه الدعوة ،
 واجتمعت الجمعية العمومية . ثم انتخبت مسيو كانيفيه صاحب
جورنال « الريفورم » بالاسكندرية نقيبا ، وانتخبت الأستاذ فارس
نمر وأيادى وكيلين . كما نتخبت كلا من جبرائيل تقلا صاحب
« الأهرام » ، ومسيو فيزييه صاحب جورنال « لوكير » سكرتيرا .
وأذكر أنى مثلت هذه النقابة أنا ومسيو فيزييه فى حفلة افتتاح
مصرة كوم أمبو . وقد خطب فى هذه الحفلة كل من يوسف قطاوى
باشا ، وأحمد شفيق باشا . ولم تعمر هذه النقابة طويلا لأن الحرب
العالمية الأولى أتت عليها ، ولكنها كانت أول محاولة لنقابة الصحفيين
فى مصر .

فى انتخابات الجمعية التشريعية

فى سنة ١٩١٣ ألغى مجلس شورى القوانين وحل محله نظام
الجمعية التشريعية وكان لابد لى من الدخول فى عضويتها لأزيد
صوتا على أصوات حزبنا فى الجمعية ، فدخلت فى انتخاباتها وكان
صديقى فتحى باشا زغلول يعلم أن الانجليز أوعزوا باسقاطى أنا
وسعد زغلول باشا فى هذه الانتخابات ، فأشار على بالآ أتقدم اليها

حتى لا يذهب معي سدى ، فقابلت مستشار الداخلية مستر جراهام وسألته عما بلغنى فى ذلك ، فأكد لى أن الانتخابات ستكون حرة وان الحكومة ستكون على الحياد . ولشد ما كان عجبى حين وجدت على باب مركز السنبلادين عربية سعيد باشا ذو الفقار وزير المالية الجديد . . . وعلمت وقتئذ أنه لما عين وزيرا بعد أن كان مديرا للدقهلية طلب اليه أن يدير هو الانتخابات دون المدير الجديد حافظ حسن باشا الذى كانت الحكومة تعلم أنه صديقى . وعلى هذا الوضع سقطت فى الانتخابات . ولكن سعد باشا زغلول نجح بالقاهرة فى دائرتين ، وأرسل الى تلغرافا يقول لى فيه :

« ولئن سقطت فى الانتخاب ، فلك عطف العقلاء » .

وقد أشيع ان الذى أسقطنى هو دعوتى الى الديمقراطية التى كانت تؤول تأويلات بين الناخبين فيها خروج على الدين الاسلامى ، ولكنى لا أعرف شيئا عن هذه الاشاعة التى قيل انها شاعت بين الناخبين ، كما لا أعرف سببا لسقوط فى الانتخابات الا تدخل الحكومة ، وعملها لاسقاطى .

الصلح مع الخديو

فى أوائل سنة ١٩١٤ طلب الى محمد سعيد باشا مرة ، وسعد باشا مرة أخرى أن أطلب مقابلة الخديو عباس لأنه يرغب فى لقائى ، فكانت اجابتي دائما : « اذا كان الخديو يريد أن يتفضل بلقائى فليدعنى هو الى ذلك » .

وفى احدى التشرiftات قال الخديو عباس لوالدى « أحب أن أراك ومعك لطفى بسرأى القبة يوم السبب » .

فاستجاب أبى الى هذه الدعوة وسر بها ، وطلب منى أن

أصبحه الى سراى القبة ، فذهبت معه ، فأحسن الخديو استقبالنا .
وتكلمنا يومئذ فى بعض الشئون العامة . وقال لى :

« أنا مسرور لحضرتك . والأستاذ جرين كلمنى عنك
كثيرا . . . » ، والأستاذ جرين هو المحامى الذى قدم مذكرة ضد
الخاصة الخديوية فى قضية شركة الجريدة .

ثم تكلم الخديو عباس عن وزارة محمد سعيد باشا ، وكان
برما بها ، ويريد تغييرها ، وسألنى عن رأى فى الرجال الذين
يصلحون لوزارة جديدة ، فذكرت له أسماء عدة منها سعد زغلول ،
وعبد العزيز فهمى ، وعدلى ، وثروت .

ولما انفض المجلس خرج معنا ليوذعنا ، وهو يقول لى : « قد
عرفت الطريق ، فتعال عندى كل يوم سبت » .

فقلت له : « يا مولاي ما شأن الكاتب والاتصال
بالسلطات ؟! » .

فقال : « اذن أنت لا تريد أن تأتى عندى ! » .

قلت : الواجب على يا مولاي أن أجيء كلما دعيت . . . » .

فدعا الخديو حافظ بك عوض الذى كان يعمل وقتئذ سكرتيرا
خاصا له وطلب منه أن يدعونى كل يوم جمعة ، لأحضر اليه يوم
السبت . وكذلك كان .

وفى يوم من أيام السبت عرضت عليه أن نحمل حملة على
الانجليز نطالبهم فيها أن يساعدونى على أن تكون جزيرة « طشيوز »
باليونان تابعة لمصر كما كانت فى زمن اسماعيل ، فانه كان يرسل
اليها دائما قاضيا مصريا وبوليسا مصريا لادارة الأمن . ثم تراخى
الأمر بعد ذلك الى أن صارت تابعة لتركيا . ثم أصبحت لليونان ،

فوافق الخديو على هذه الفكرة فطلبت اليه الاذن بأن أطلع على
الفرمانات الخاصة بها في السراى ، فكلف شفيق باشا بأن يأمر
بترجمة هذه الفرمانات الى اللغة العربية . فترجمت ، وبدأت في
« الجريدة » حملة على هذا الوجه ، مؤداهما أن الانجليز اذا لم
يحمونا من اليونان ، فممن يحموننا ؟ وما كدت أسير في هذه
الحملة حتى قال لى فى يوم سبت آخر :

– يخشى أن تقع « سالونيك » ومعها طشيوز « فى حوزة
البلغار . وعلى ذلك يكون من الأصلح أن نستبدل بها أطيانا فى
الصلمان بالاناضول :

وكان غرضه من ذلك أن يوسع بهذه الأطيان تفتيشه فى تلك
البلاد ، فقلت له :

– يا مولاي لست أدرى فى المسائل الاقتصادية شيئا يذكر . .
وطويت أوراقى وصرفت النظر عن « طشيوز » .

بعد ذلك اعتزم الخديو عباس أن يسافر الى استامبول ،
ورغب فى زيارة مديريات الوجه البحرى قبل السفر . مظهرة كان
يريد بها اقناع الانجليز بأن البلاد تحبه وتتعلق به ، فدعانى اليه
عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى فى ذلك الحين ،
وقال لى :

– ان سمو الخديو يحب فى سفرته هذه أن يزور والدك فى
البلد ، فهل لكم بيت فى السنبلالوين ؟

قلت : « نعم » ، قال : « اذن تستقبلونه هناك » .

فقلت : « وهو كذلك » .

وشكرت للخديو هذا العطف ودعوت له بطول البقاء . . ثم
قام الخديو بزيارة الوجه البحرى ، واستقبلناه بالسنبلاوين فى
حفل من العمد والأعيان . وسر أبى سرورا عظيما بهذه الزيارة ،
وصحبناه الى الاسكندرية حتى ركب البحر .

الفصل العاشر

عرفت تولستوى

وفتحى زغلول

* تولستوى رجل الاشتراكية والسلام

* فتحى زغلول رجل الحرية والتطور

ليو تولستوى

فى نوفمبر سنة ١٩١٠ توفى رجل الانسانية والسلام
ليو تولستوى . وكنت وقتئذ فى قريتى ، فبعثت الى الجريدة برأى
فى هذا الرجل العظيم بمناسبة وفاته فى ذلك الحين فقلت :

أحاول أن أكتب كلمة عن تولستوى حيث أنا الآن فى قريتى
تحيط بى أشباه المناظر التى كان يحبها تولستوى يحبهم ويتفطر
قلبه اشفاقا عليهم رحمة بهم ان يقتربوا من المداخن فتحرقهم نار
الشهوات ، وتلعب بقلوبهم البريئة شياطين الأطماع الخسيسة ،
فتغير مجرى فطرتهم الصالحة الى عادات البذخ والترف ، وتجري
السنتهم على الكذب وتسكن أمزجتهم الى رؤية الزور ، وسماع الهجر
من القول والصبر على الباطل .

أكتب عن هذا الرجل الكبير ، حيث أنا فيما كان يحبه ،
رحمه الله من السكينة ، لا أسمع الا خفيف الهواء ، وصهيل الخيل ،
وصياح الدجاج ، ونعيق الغراب ، وصفير العصافير . فلا شك أنى
فى أليق ظرف من الزمان والمكان ، أحاول الكتابة عن تولستوى
وان لم يكن تحت يدي ولا مؤلف واحد من مؤلفاته الكثيرة . وانى
على ذلك لا أجدنى برثائه خليقا ، الا كما يرثى امرؤ هذه الأرض
الواسعة قد خلت من أحد مصابيحها ذوات الضوء الساطع ، أو كما

يشفق أحد بنى آدم من فقد هاد من هداة الفضيلة ، وواعظ من أكبر الواعظين .

أشعر بأن مصيبة العالم فى هذا الرجل ليست كالمصائب التى تفجع لها القلوب ، وتألم لها الأنفس بحزن حار ، يجرى الدموع ويسلم اللسان لهذيان من فرط الجزع . لا أشهر بذلك ، بل أشعر بأن المصيبة بفقد هذا الحكيم مصيبة كبيرة ، واقعة فى النفوس وقعا فائرا ، لا تدمع عينا ولا تخفق قلبا ، ولا تحرك ألما من آلام الأحزان ، كأنما هى تقع على العقول لا على القلوب .

فأولى بوقاة تولستوى أن تشبه بكسوف الشمس أو بخسوف القمر ، أو بأية ظاهرة من تلك الظواهر الطبيعية ، التى أكثر ما تهتم لها عقولنا لتدبرها ، وتعرف آثارها فى الوجود . .

لم يكن هذا الرجل روسيا فقط ، بل كان انسانا قبل كل شئ ، يحب أمته ويحب أعداء أمته ، يحب السلام على الدوام ، يحب أيام السلام وأيام الحرب على السواء . يكره الحرب سواء كانت الغلبة فيها لقومه أو على قومه .

ولم يكن كذلك مسيحيا محدود المشاعر بحدود النصوص أو التقاليد ، بل كان مسيحيا لأحد لتسامحه ، يسع صدره الرحيب آراء موافقيه فى الدين ومخالفيه ، يرى فى الدين أنه طهر للنفس والمشاعر وحب القريب والغريب ، ويرى فى العمل به السعادة فى هذه الدار الدنيا والآخرة .

فاذا كان تولستوى رجلا روسيا وحدها ، بل رجلا العالم والسلام ، واذا كان تولستوى ليس مسيحيا محدودا بمذهب معين متعصبا له ، بل متسامحا يقبل دين الفضيلة حيثما وجد من غير تخرج بحدود مذهب غير مذهبه الواسع ، فأخلق بمصيبة تولستوى

ان تكون كما قدمنا خسارة عالمية ، لا خسارة روسية ، أو خسارة مسيحية .

ان الله يبعث الجيل بعد الجيل على هذه الكرة رجلا من الناس يؤتيهم طرقا من حكمته وقيسا من نور أسرارهِ ينصرون الحق على الباطل ، ويشعرون بنور هديه في الأزمة المظلمة والمكان القفر ، يتبعون سنن الأنبياء في ارشاد الناس ، ويقفون نفوسهم وملكاتهم على بلوغ ما يريدون من خير للانسانية ، فاذا مات أحدهم كان موته خسارة تتأثر لها الحقائق العلمية ومكارم الأخلاق ، ولم يكن تولستوى الا أحد هؤلاء . فمن بعده للفقراء والمساكين يقف لهم في وجه الظلم والبؤس والنفي والعقاب على غير جريرة . ومن للبلدين ينصره بشجاعة فائقة لا تقف أمامها انتقادات المتقدين ، ورمى الرامين له بالزندقة والخروج عن القصد ، بل من للمساواة والمعاملة بالعدل ينصرها من تعدى الطبقات القوية عليها في كل مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . بل من يهدي الرجال الى العمل الصالح ، وقد مات الرجل .

اشتغل تولستوى بالفلسفة ، فلم ير رأى النظريين بجملته ، ولا رأى الماديين أو الوضعيين ، كان عقله الواسع يأبى ، دائما ، وفي كل شيء ، أن يتقيد بالقيود المذهبية التي يستحيل أن تخلو من التعسف .

اشتغل بالسياسية فكان يكره الاستبداد ، وينفر منه ، ويغلب ارادة الجماعة على ارادة الفرد ، يقول بسلطة الأمة ، ويعمل بنفسه وبأنصاره وتلاميذه (وهم أكثر من الكثير) على تحقيقها وقد تحققت في بلاده أو كاد يتم تحقيقها بالفعل .

اشتغل علما وعملا بالاقتصاد ، فكان مذهبه اجتماعيا قريبا جدا من الاشتراكية أو كان هي بعينها . وهو وان كان لم ينجح

فى تجربة ، الا أن ذلك ليدل كثيرا على عقله المرتب الذى ظهرت
آثاره متجانسة فى جميع الفروع المختلفة التى اشتغل بها .

اشتغل بالدين ، فنفى منه كثيرا جدا من التقاليد الكنائسية
المادية على الأخص ، واتخذ له انجيلا خاصا به اتبعه كثيرون فى
تعاليمه .

وقد كان تولستوى على ذلك كله يجب أن يحسب فى كتاب
الحقيقة (كتاب الواقع) لا كتاب الخيال (الذين يكتبون عن
الانسان باعتبار ما يجب أن يكون لا باعتبار ما هو فى الواقع) .
فانى أذكر أن قصته الموسومة (بالبعث) لم يكن فيها عن الشهوات
الا حقائق عريانة ، لاحظ فيها تغليب الشهوة على النبيل فى نفس
بطل الرواية ، ثم أظهر فيها أغلاط العدل الانسانى على صورتها
التي كانت قد فارقت مؤقتا عند استحكام الشهوة . وذلك ما نجده
عاما فى الانسان كل يوم ، ثم رجع الى تأثير الوسط ، وتغلب ميول
النساء مما لا يشذ كثيرا عن الأمثلة اليومية التى يجدها مخالطهن ،
ولو كان غير عمار ذى كناز الذى قال فيهن :

أراح الله عمارا	من الدنيا ومن هن
قريبان بعيدان	فلا كانا ولا كن
يمنين الأباطيل	ويجحدن الذى قلن

كذلك كان وصفه لحال الزوجية فى قصصه « لاسونانت
اكرتزر » غير ناب عن الواقع ، وأن وصفه فيه غير عام فى العائلات
مع السرور . ولقد سبب له هذا الكتاب امتعاض السيدات منه ،
واتهامهن له فيما كتب ، وأرسلن له خطابات الانتقاد والشتيم .
وعندنا أنه فى هذا الكتاب لم يكن خياليا ، ولا كاتب واقع الا كما
كان (اميل زولا) فى كتاب : (الاسوموار) فان عيشة الناس ليست

كلها سكرًا ، وليست كل الأبنية ، ولا غالبها في المدائن حانات
وخمارات • كما أن جميع النساء لسن على تلك الحال التي وصفها •
ولا ريب في أن تولستوى أراد أن يبين عيوب التربية الحاضرة
وقتئذ ، وأنماطها المتخذة لتعليم البنين والبنات ، فكتب هذا الكتاب
ليجعل الناس يلمسون بالحس نقص تلك التربية ، ليفتكم الى
التربية التي لها قاعدة من الاعتقاد الدينى تركز عليها لتأتى بنتائج
السعادة المنشودة في العائلة • أقول ان هذا النظر لا يخرج
تولستوى من كتاب الواقع ، كذلك يؤكد زعمنا سؤاله (ما العمل ؟)
و (الذى يجب عمله) ، وان كان له ما يصح أن يجعله من كتاب
الخيال كبعض قطع (الايمبتاسيون) و (حرب وسلام) • فذلك
لا يكون الا لأن عادة عدم التقيد بالمذاهب الضيقة التي اتخذها شعارا
له قد غلبت عليه • وليس لنا أن ندخل فى بحث موضوعاته الدينية ،
وتعاليمه اللاهوتية ، بل نترك الحكم على ذلك لغيرنا •

فتحى زغلول

أرى من الوفاء لمبادئ الحرية وخادميها أن أذكر صديقا عظيما عمل لنشر هذه المبادئ ، هو المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا ، فقد نظر نظرة صادقة الى حال الأمة المصرية وحكومتها ، فرأى انها أحوج ما تكون الى معرفة المثل الأعلى الذى تبغى الوصول اليه من نظمها السياسية والاجتماعية حتى تتحد أطماعها الوطنية على طريقة عامة واضحة . . ورأى فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلماء هي نقل العلم الى أوطانهم بالترجمة . . إن هذه الطريقة كانت هي ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان .

هذه النظرية الصادقة كانت رائد فتحى باشا فى خدمته لوطنه منذ خرج من المدرسة الى أن مات ، فانه فى سنة ١٨٨٨ أخذ يترجم كتاب « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو ، فلم يتمه . ولكنه ترجم بعد ذلك « أصول الشرائع » لبنتام . و « خواطر وسوانح فى الاسلام » للكونت هنرى دى كلترى . و « سر تقدم الانجليز السكسون » لريمون ديمولان . و « روح الاجتماع » و « سر تطور الأمم » لجوستاف لوبون ، و « جوامع الكلم » لجوستاف لوبون ، وقد نشرت هذه الكتب كلها . . وله فوق ذلك كتاب « بورجار » فى الاقتصاد السياسى ، و « تمدن العرب » لجوستاف لوبون ، و « جمهورية أفلاطون » و « الفرد ضد المملكة » لسبنسر . .

أما مؤلفاته ، فهي كتاب المحاماة ، ورسالة فى التزوير ، وشرح القانون المدنى . . وقد ألف قبيل وفاته كتابا فى « التربية العامة » .

نابغة في الترجمة

عرفت مترجماته وقرأت المنشور منها ، وتصفحت غير المنشور ، وأستطيع أن أقول ، من غير تردد ، أن فتحي زغلول كما كان نابغة في الفقه ، كان نابغة في الترجمة يمسك الكتاب يقرؤه أولا ، ثم يدخل بنظره الحاد في طيات نفس الكاتب ، فيظهر أسرارها بقلمه العربي المبين . ومن التراجع ما تترجم الألفاظ تحمل معانيها خالية من روح الكاتب وحرارته ، فلا يكون لها تأثير . أما مترجمات فتحي زغلول ، فانك تقرأ فيها المعاني والأغراض كما تقرأ كاتبها من غير فرق .

دخلت عليه في بيته يوما بمصر الجديدة يوم حر شديد ، فالفيته يضع شرح القانون المدني ، وإلى جانبه سر تطور الأمم ، وقد فرغ من ترجمته في بضعة أسابيع لازم بيته بالمرض أصابه ، فأشفقت عليه من هذا الجهد الشاق في ذلك الحرق ، على ما تعهد فيه من رقة في الصحة وعمل دائم في سنة العمل ، وقلت له : « أبهذا ترتاض يا سيدى الباشا ؟ » فأجاب : « نعم هذه هي رياضتى ! » .

فعجبت لجلده وصبره وتفانيه في خدمة العلم وخدمة بلاده .

شخصية ممتازة

كان لفتحي باشا شخصية ممتازة في طريقة أسلوبه البياني . ولم يكن يترجم ليترجم ، ولا طلبا للشهرة والمال من وراء ذلك . وكان حسببه شهرة مناصبه العالية وكفاءته التي ما كانت يوما موضعاً للشك من أحد ، سواء في ذلك أصدقائه وحساده ، عارفوه وغير عارفيه . ولكننا إذا أجمالنا مترجماته دلنا مجموعها على أنه كان له غرض ثابت يرمى إليه من وراء نشر هذه الكتب .

غرضه نشر مبادئ الحرية : حرية الفرد ، وحرية الأمة .
وتنبيه أطماع الأفراد والأمة جميعا الى اتخاذ مثل أعلى قبله لهم في
آمالهم الوطنية .

منذ سنة ١٨٨٢ كان يرى الأمة تتقلب في أحوال متناقضة
مبهمة ، فكأنت تسوء هذه الأحوال ، ويود لو أن الشعور الوطني
الذي كان وقتئذ في حذر مستمر ولى وجهه قبل الاستقلال على نحو
منتج . . . كان يود لو تدرك الأمة أن ابهام الغرض وعدم ادراكه
بوضوح يجعله مستحيل المنال ، لذلك أراد أن يقدم للجمهور
« العقد الاجتماعي » لروسو حتى يتبين الجمهور حق الأمة وما يجب
أن يكون لها من السلطان .

وللأسف لم يظهر هذا الكتاب مع أنه بلغ من ترجمته مبلغا
كبيرا ، ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام في أصول الحقوق
والواجبات ، حتى جاء الزمن الأخير فظهر الشعور الوطني بمظهر
جميل ، ولكنه لا يزال في مقاصده بعض اللبس حتى فيما هو
مكتوب من المبادئ في الصحف ، وما الصحف الا ترجمان الرأي
العام .

ايمانه بالاشتراكية الديمقراطية

ولعل فتحي باشا أمام هذه المشاهد أشفق على حرية الأفراد ،
وتربية الأمة من الميل الظاهر الى ما يشبه الاشتراكية ، فان الناس
لم يقتصروا في طلبهم على حقوق الأفراد من الحرية وحق الشعب من
السلطة ، بل أخذوا مع ذلك يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل
شئ . ومهما كان في أساليب هذه المطالب من الانتقاد الضمني
الا أن مثل هذه الحركة من شأنها أن تجعل الحكومة هي كل شئ
والفرد لا شئ !

الاشتراكية قد تكون معقولة اذا كان للشعب شأن في
تنصيب الحكومة ، والا فهي اشتراكية معكوسة النتائج ، فأخذ
فتحى زغلول عن بعد يهدى الأفراد الى وجوب الاستمساك
بشخصيتهم ، ويبين لهم أن التربية الشخصية هي التي كانت سر
تقدم الانجليز السكسون ، فطلب الى المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء ،
وآلا يفنوا شخصيتهم ، فيفنى وجودهم ، واستطرادا في هذا النظر
تصدى لترجمة « الفرد ضد الأمة » و « روح الاجتماع » ، و « سر
تطور الأمم » - كل ذلك لينشر في الجمهور الأسس العلمية للرقى
حتى يطبق الناس حالهم على هذه الأصول ، فينتفعوا بتجارب الأمم .

ان توفيق فتحى باشا في اختيار مترجماته يدل فوق ما قدمت
على أنه كان يعتنق مذهب الاشتراكيين الديمقراطيين ، سواء أكان
ذلك في التربية والتعليم أم في الأصول الاجتماعية والسياسية بل
الاقتصادية أيضا .

ولو شئنا أن عقائده من منتجاته وأحاديثه لضاق بنا المقام ،
ولكنى أكتفى بالإشارة الى أن بين اختياره لتلك المؤلفات ، وبين
مذهبه الديمقراطى الاشتراكى في محاولة الاصلاح الاجتماعى
والسياسى نسبا متصلا جد الاتصال .

رجل تطور

من ذلك نعلم أن فتحى زغلول كان رجل تقدم تطورى .
فكما أنه كان يرى أن خير القوانين ليس هو القانون الحسن في
ذاته ، ولكنه القانون الذى يحتمل الشعب تطبيقه ، كذلك كان يرى
أن خير المبادئ الاجتماعية والسياسية ما كان بينه وبين طبائع
الشعب وعاداته نسب يكمل ما فيها من نقص ، ويقوم ما بها من
اعوجاج .

كان فتحى يسترشد بهذه الآراء الحرة . . فاذا لم يكن نشرها يتفق مع مركزه فى الحكومة ، فقد نشرها بالترجمة ليرضى دواعى ضميره ، وليثابر على تربية قومه تربية صالحة على قواعد ثابتة مع معرفة الحقوق والواجبات ، فليس فتحى على ذلك من أصحاب المناصب ، بل هو من أرباب المذاهب .

ومن كان كذلك من شأنه أن يكون شقيا معذبا ، يكاد لا يكون له من راحته ووقته نصيب ، فهو مقسم بين الأعمال الرسمية الشاقة ، وبين خدمة العلم ، يعمل فى التأليف والترجمة شطرا من الليل ، وأحيانا طول الليل ومدة العطلة ، فاذا لامه فى ذلك أصدقاؤه هز كتفه هزة الفيلسوف لا يبالي مات اليوم أو مات غدا .

نعم كان العالم المفكر فتحى زغلول يرى أن الحياة تقدر بما يتم فيها من العمل الصالح ، لا بعدد السنين والأيام .

مثال الموظف المتفانى

وقد كان فتحى زغلول أصغر أنجب المرحوم الشيخ ابراهيم زغلول من أعيان أعيانة . ولد فى تلك القرية فى ربيع الأول سنة ١٢٧٩ هـ . ومات أبوه اذ كان رضيعا ، وكان شقيقه سعد زغلول فطيما . خلفهما أبوهما فى حضانة والدتهما التى هى إحدى عقائل عائلة بركات الشهيرة بالغربية . وكانت وقت وفاة زوجها لا يتجاوز عمرها العشرين ، فقامت على ولديها ، ووقفت نفسها على تربيتهما تحت إشراف أخيهما الكبير لأبيهما المرحوم الشناوى أفندى زغلول الذى عنى بتعليمهما على أحسن ما تعلم به أبناء الأعيان .

تعلم « فتح الله » الصغير فى كتاب البلد ، ثم فى مدرسة رشيد ، ثم فى المدرسة التجهيزية ، ثم فى مدرسة الألسن . فاتفق أن زارها المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية ، فأعجب بذكاء

الشباب « فتح الله » وأعطاه اسم أحمد ، ونحت من فتح الله « فتحى » وأصدر أمرا رسميا الى المدرسة بتسميته أحمد فتحى ، وبأن يرد اليه ما دفع من المصاريف المدرسية ، وبأن يتعلم بالمجان ، لدرس الحقوق ، فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة ١٨٨٧ . فوظف بقلم قضايا الحكومة ، ثم رئيسا لنيابة أسيوط ، ثم رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم مفتشا بلجنة المراقبة فرئيسا لمحكمة الزقازيق ، ثم رئيسا لمحكمة مصر ، ثم وكيلًا لنظارة الحقانية ، وهى الوظيفة الأخيرة التى مات وهو قائم بها .

كان فتحى مثال الموظف المتفانى فى أداء واجباته القائم بعمله وعمل غيره أحيانا . ولم يمنعه ذلك من أن يكون مترجما أمينًا ومؤلفا كبيرا .

ان شدة الذكاء وقوة النفس وحسن الاخلاص - تلك الصفات التى ظهرت آثارها على فتحى باشا منذ شبابه الغض ، راجع معظمها الى التأثير الوراثى من أبويه ، وعلى الأخص والدته التى أفاضت عليه من صفاتها بما يفيض الأختل وبما غرست من المبادئ الصالحة مما جعل لفتحى شخصية ممتازة منذ صباه .

ولا عجب فأمهاتنا نحن القرويين منهن مع بساطة فى المدارك العقلية وبعد عن العلوم والمعارف على جانب عظيم من الذكاء الفطرى ورفعة الأخلاق ، وعزة النفس ، والذوق السليم فى الحكم ، والطيبة والتقوى فى المعاملات . ينقلن هذه الصفات لأبنائهن بحكم قانون الانتقال الوراثى ، فتكون لهم رأس مال فى الحياة العملية . ولولا هذه الصفات لهلك القرويون غير المتعلمين بما هم فيه من جهل عميق . .

فالأمهات القرويات أن يقبلن شكر الجيل الحاضر ، وعلينا
أن نعترف علنا بما للأمهات من الأهمية العظمى في توريث البنين
والقيام على تربيتهم الأولى .

وأمامنا المثل الحسى : ان هذه الوالدة القروية ينسب اليها
الفضل الأكبر في أنها أخرجت لمصر نابغتين عظيمين : سعد زغلول
وشقيقه فتحي زغلول .

الفصل الحادى عشر

- * معظم النار من مستصغر الشرر •
- * قلت لرشدى : أتدخل الحرب مجانا يا باشا !! •
- * كسرت قلمى واعتزلت السياسة والصحافة
- * لماذا ترجمت مؤلفات أرسطو؟ •
- * ألفنا أول مجمع للغة العربية ... ثم فشل •

معظم النار من مستصغر الشرر

وقع ما كان يخشاه العالم بأسره ، وعم الخطب سنة ١٩١٤ ولم يبق بعد سبيل الى السلام ، ولم يكن لينتظر أن الخلاف المحلى الذى قام بين النمسا والصرب يصل الى النتيجة التى وصل اليها • وهنا نورد المثل المشهور : « معظم النار من مستصغر الشرر » •

عجزت السياسة والمفاوضات السياسية ، والوساطات الملوكية والامبراطورية عن تأييد السلم وحقق الدماء ، وحماية مصالح الناس ، وانفرد الشر بالحكم فى أوروبا اذ تفخ فى صوره ففزعت لدعوته الملايين ، انقلبوا عن صورهم المدنية ، فأصموا آذانهم عن دعوة الاخاء الانسانى ، واستدبروا نهائيا مبادئ المحبة والغفران والسلام ، وغشى الغضب أبصارهم ، فلم يعودوا يفكرون فى الخسارة الكبرى التى يجنيها المحاربون من وراء الحرب سواء فيهم الغالب والمغلوب • واستهانوا بالأضرار التى تلحق العالم بأسره من وراء هذه الحركة ، التى ليس فيها من البركة شئ •

تلك حرب لم تكن كحروب القرون الأولى ، فان المدنية الحاضرة
قد جعلت الكرة الأرضية أشبه بالوطن الواحد في المنافع الاقتصادية
التي هي أساس العمران ، بل علة الحياة ، أجزاءه متضامنة في
الخير والشر . أقفلت أسواق أوربا وميزان الحركة الاقتصادية
العامة معلق بين أصابعها ، فأخلت بالموازنة في كل شيء حتى في
أسعار الأقوات في كل البلاد ، وأصبحنا في مصر ونحن بمركزنا
الاستثنائي بعيدين عن هذه الحركة الحربية نشعر من أول يوم
بالرجات الشديدة التي انتابت سوقنا المالية ، وعلى هذا القياس
كل أنحاء الكرة الأرضية . أفلا يعلم الذين يعلنون الحروب بكلمة
من أفواههم ، مقدار المسئولية التي يحملونها بهذه الكلمة الكبرى
التي تسفك دماء الملايين من الأبرياء بالمعنى الصحيح الذين يتمثلون
بقول القائل :

لم آكن من جناتها علم الله وانني لحرها اليوم صالى
يقاد أحدهم من الدار الى النار ، لا دفاعا عن وطن مهدد ،
ولكن ارضاء لشهوات العظماء ، ارضاء لرؤساء الأحزاب ، ارضاء
لكلمات ضخمة مجوفة ترن رنين تمثال آمون وليس في بطنها من
الحقيقة شيء .. رحم الله « جوريس » أول قتيل لهذه الحرب ،
وأول ضحية من ضحاياها الذاهبة في سبيل الحق والسلام .

قلت لرشدى

هذا وقد كان لمصر وقتئذ مصالح يجب أن نرعاها ، وكانت
الوزارة الرشدية بالاسكندرية ، فاتصلت برئيسها صديقى المرحوم
حسين رشدى باشا عن طريق التليفون ، وما كدت أخاطبه فى أمر
عادى حتى قال لى :

— دع عنك هذا ، فان انجلترا أعلنت اليوم الحرب على
المانيا ..

ودعانى للقاءه فى اليوم التالى ببيته بالقاهرة .
وذهبت للقاءه ، فوجدت معه عدلى يكن باشا وزير الخارجية
وهما يحلان تلغرافا بالشفرة من زميلهما محمد محب باشا ، وكان
وقتئذ بصحبة الخديو عباس حلمى باستامبول ، فقال لى رشدى
باشا :

ان انجلترا قد دخلت الحرب ، وقد كتبنا هذا باعلان الأحكام
العرفية فى البلاد .

وسلمنى اعلانا ، فقلت له :

— أتدخل الحرب مجانا يا باشا .. ؟!

قال :

— بل احترزنا مما نخاف ، بأن قلنا « نظرا للاحتلال الفعلى

لانجلترا فى مصر » .

فقلت له :

– أخشى أن يقول الناس ان هذه سذاجة سياسية • فاذا كانت انجلترا تريد أن تجربنا معها الى هذه الحرب ، فلتعترف لنا أولا بالاستقلال •• !

قال رشدي :

– لم يفت وقت ذلك •• !

واتفقنا نحن الثلاثة على السعي لتعترف انجلترا باستقلالنا ، ونكفل لها مصالحها الى حد ان نعاونها بدخولنا معها الحرب اذا كان هذا ضروريا •

وقد كان أكثر رجال الوكالة البريطانية وقتئذ في أوروبا بالأجازة • ثم كان « سير ريجنلد ونجت » أول من حضر منهم ، فكلمه رشدي باشا في ذلك ، وصارحه بأن مصر مستعدة لمناصرة بريطانيا العظمى بشرط ان تعترف باستقلالنا ، فارتاع « ونجت » لهذه الفكرة ووعد بأن يعرض الأمر على حكومته • ثم جاء بعد ذلك مستشار الداخلية « سير جراهام » فلقيته وقلت له :

– ان مركزنا الآن دقيق ، فنحن تابعون لتركيا ، وهي ستدخل الحرب مع ألمانيا وأنتم محتلون بلدنا الذي أعلنت حكومته الحكم العرفي تضامنا معكم ، فلا بد لنا من تنظيم هذه الحالة •• ولست أرى طريقا لذلك الا ان نعلن استقلالنا وننصب الخديو ملكا علينا ، وأنتم تعترفون بذلك •

فقال : تركيا لن تدخل الحرب ، وعندنا على ذلك ضمانات •

قلت : لم يكن دخول تركيا الحرب واجبا ، أفلا يكون . . محتملا ؟

قال : كل شيء محتمل •• !

قلت : اذن ماذا يكون ؟! ..

فلما ألححت عليه فى الاستدلال على ضرورة دخول تركيا
الحرب وسوء مركزنا فى ذلك الوقت ، قال :

– يا صاحبى نحن نعرفكم كما تعرفون أنفسكم .. فحين
ظهور أول طربوش تركى من القنال تتركوتنا وتجرون وراهم •
وانقطع الحديث عند ذلك ، فأخبرت رشدى باشا بما حدث ،
فقال لى أنه كلمه كذلك فلم ينل منه طائلا !

وحدث ان دعا رشدى باشا سير « ستورس » السكرتير الشرقى
للكالة البريطانية ليتغذى معه بالكونتنتال • وعلم بذلك محمد
محمود باشا ، فدعائى أن آتغذى معهم الى جانبهم ، كى نعلم بعد
الغداء من رشدى باشا ماذا دار بينهما • ولما انتهينا قال لنا رشدى
باشا :

– ان ستورس يؤيد فكرتنا كالسير ريجنلد ونجت ، ووعدنى
بأنه سيخاير أباه العضو فى البرلمان البريطانى ليثير هذه المسألة
عند الحكومة البريطانية •

كسرت قلمي

وكننت ، وقتئذ ، أتردد على عدلي باشا لأعرف الى أي حد وصلت مسألتنا ، وذات يوم التقيت به فوجدته متشائما ، وبأدري بقوله :

— ليس عندي أمل في نجاحنا .. !

فخرجت من عنده مكتئبا كاسف البال ، وزارني بعد أيام نجيب باشا غالي وكيل الخارجية في ذلك الحين فسألني قائلا :

— ما هو الأمر الذي تتردد من أجله على عدلي باشا ؟ ..

فأضيت له بما عندي ، وقلت :

« ان الأمر قد انتهى بالفشل ، ولهذا سأكسر قلمي ، وأذهب الى بلدي ، وأعتزل السياسة » .

وفي اليوم التالي كلمني ستورس بالتليفون ، وقال لي :

— لا تيأس .. !

ثم كلمني بعد دقائق نجيب غالي باشا يدعوني الى العشاء عنده أنا وستورس — وكان اللورد كتشنر قد عين وزيرا — فقلت لنجيب باشا :

— اني أقبل الدعوة بشرط أن يحضر معنا عدلي باشا .

فأجابني الى ذلك . واجتمعنا نحن الأربعة في بيت نجيب باشا وحدثنا ستورس حتى ظننا أن النجاح في تناول يدنا ، فوضعنا

في بيت نجيب باشا صورة المعاهدة بيننا وبين بريطانيا العظمى
تتضمن اعترافها باستقلالنا واعترافنا بمصالحها في مصر وفي قناة
السويس .

كل ذلك في شهر أغسطس سنة ١٩١٤ وكان الأمل يحدونا
جميعا .

ذهبت بعد أيام قلائل الى عدلى باشا بديوان الخارجية فوجدته
قد يئس نهائيا من تحقيق مطلبنا ، فخرجت من عنده وأنا مصمم
على اعتزال السياسة ، ثم قدمت استقالتى من رئاسة « الجريدة »
لرئيسها محمود سليمان باشا ، وسافرت الى بلدتى « برقين » .
وكان هذا آخر عهدى بالعمل الصحفى .

عدت موظفا في الحكومة

ما كادت تمضى على اقامتى في برقين مدة طويلة حتى عزل
الخديو عباس ، وأعلنت الحماية على مصر ، ونصب الأمير حسين
كامل سلطانا عليها .

وشاع بعد ذلك في البيئات السياسية في مصر ان تركيا
حكمت بالاعدام على السلطان حسين وأعضاء وزارة رشدى باشا ،
باعتبار أنهم قبلوا الحماية ، وعلى أنا أيضا باعتبار انى أثرت حركة
سنة ١٩١١ ضد الأتراك .

وفي سنة ١٩١٥ كنت بالقاهرة ، فجاءنى أبى من « برقين »
مذعورا وهو يقول انه قد أشيع عندنا ان سعد زغلول باشا قبض
عليه ، فخشى أن يكون قد قبض على أيضا ثم ذهبت معه الى بيت
على شعراوى باشا ، فقال لى شعراوى باشا : « ان ستورس سألنى

عنك ، وسأل هل جففت دموعك من يوم اعلان الحماية على مصر أم لا ؟ » . ثم قال لي : « ان السلطان حسين يرغب في أن تدخل وظائف الحكومة » .

كل هذه الظروف جعلت أبى يستحثنى على أن أقبل الدخول فى الحكومة حتى لا يقبض الانجليز على . فقبلت ذلك ارضاء لوالدى رحمه الله . وعينت رئيسا لنيابة بنى سويف ليتمكن ترشيحى قاضيا بالاستئناف . ولم ألبث فى بنى سويف غير أشهر ، وأرسل الى عدلى باشا بأن أحضر الى الاسكندرية ، ولما حضرت أخبرنى ان السلطان حسين مصمم على أن أكون مديرا لدار الكتب المصرية خلفا للدكتور شادة المدير الألمانى ، فقبلت ذلك .

لماذا ترجمت أرسطو ؟

نشأت من الصغر ميالا الى العلوم المنطقية والفلسفية . وقد لفت نظري في أرسطو أنه أول من ابتدع علم المنطق ، وأكبر مؤلف له أثر خالد في العلوم والآداب . ولما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض أصدقائي في وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث في النهضة الأوروبية ، فقد عمد رجال هذه النهضة الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية ، فكانت مفتاحا للتفكير العصري الذي أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة .

ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو ، فلا جرم ان آراءه ومذهبه أشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب الى نقل العلم في بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج في النهضة الشرقية مثل ما أنتج في النهضة الغربية .

وفي الحق أن أرسطو لم يكن كغيره معلما في نوع خاص من العلوم دون سواه ، بل هو معلم في الفلسفة ، معلم في السياسة والاجتماع ، فهو كما لقبه العرب بحق « المعلم الأول » على الإطلاق ، وكما وصفه دانتى في جحيمة « معلم الذين يعلمون » .

وقد ترجمت في سنة ١٩٢٤ عنه « كتاب الأخلاق » . وهذا الكتاب يعد مقدمة لكتاب السياسة . بل ان جانبا كبيرا منه يمهّد لموضوع كتاب السياسة ، فأردت أن أترجمه ليستفيد منه قراء العربية .

أما القواعد التي وضعها أرسطو لعلم السياسة فما زالت هي القواعد السائدة بين الساسة ، وهي القواعد التي يدرسها الآن طلبة العلوم السياسية في الجامعات ونحن نسمع الآن كلمات الاتوقراطية ، والديمقراطية ، والدكتاتورية ، وهي كلها من تعبيرات أرسطو وابتداعه .

وقد قال أوغست كونت : « الواجب علم أن أنوه باسم أرسطو العظيم ، فإن سياسته الخالدة هي بلا شك إحدى النتائج الباهرة للزمن القديم .. على أنها إلى هذا الوقت هي المنوال الذي نسجت عليه أكثر الأعمال التي جاءت بعدها في هذا الموضوع » .

« والسياسة عند أرسطو هي أشرف العلوم ، لأنه يعرفها بأنها تدبير المدينة ليكون سكانها فضلاء ، ومن هذا التعريف ترجع إلى السياسة سائر العلوم ، أو كما قال أرسطو أن السياسة تبين ما هي العلوم الضرورية لحياة الممالك ، وما هي العلوم التي يجب أن يتعلمها السكان ، وإلى أي حد ينبغي أن يعلموها » .

أول مجمع للغة العربية

في نحو سنة ١٩١٦ دعاني المرحوم اسماعيل عاصم المحامي مع عدلي باشا ورشدي باشا والأستاذ يعقوب صروف وآخرين في بيته وتحدثنا عنده في ضرورة إيجاد مجمع للغة العربية لا يكون تابعا لوزارة المعارف ، ولكننا تأويه في دار الكتب المصرية ، وتمهده بمساعدة عمالها وموظفيها في أعماله الكتابية ، ودعوت حفني بك ناصف وعاطف باشا بركات ، ووضعنا قانونا للمجمع ، وألفناه برئاسة الشيخ محمد أبي الفصل الجيزاوي شيخ الجامع الأزهر ، وكنت أنا سكرتير المجمع ، وأذكر من أعضائه الشيخ محمد بخيت ،

والشيخ عبد الرحمن قراعه ، وعاطف باشا بركات ، والأستاذ يعقوب
صروف ، وحفنى ناصف بك ، والشيخ الاسكندري وحلمى عيسى
باشا .. ومن أطف ما أذكره عن هذا المجمع اننا مكثنا سنة كاملة
نتناقش فى جواز التعريب !!

وقد انطوى هذا المجمع ولم يعمر طويلا .

الفصل الثانى عشر

● لماذا طلبنا الاستقلال التام ؟

● الأصدقاء الخمسة : سعد زغلول ، عبد العزيز فهمى ، على شعراوى ، محمد محمود ، أحمد لطفى السيد .

● ويلسون يوافق على الحماية !

لماذا طلبنا الاستقلال التام

فى سنة ١٩١٩ ، نهضنا نطالب بالاستقلال التام - وقبل ذلك بزمن بعيد طلبناه ودعونا اليه - طلبناه على طرق متنوعة ، وبصنوف مختلفة . طلبناه من فرنسا ، ومن انجلترا ومن السلطة الشرعية ، طلبناه بأقلام الكتاب ، وبألسنة الزعماء : لأن الحرية هى معنى الحياة ، وفقدان الحرية هو الموت .

طلبنا الاستقلال التام لأن الحرية هى الغذاء الضرورى لحياتنا . ولو كنا نعيش بالخبز والماء ، لكانت عيشتنا راضية ولقوق الراضية ، ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ، ومن أجله نحب الحياة ليس هو شبع البطون الجائعة ، بل ارضاء العقول والقلوب . . . وعقولنا وقلوبنا لا ترضى الا بالحرية .

انا اذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئا كثيرا . . . انما نطلب ألا نموت . ولا يوجد مخلوق أقنع من الذى لا يطلب الا الحياة ووسائل الحياة . كما أنه لا أحد أقل كرما من ذلك الذى يهين على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة .

لست أعجب من الذى يستهين بحياة الرجل ، فيستعجل عليه القدر المحتوم . ولكنى أعجب من الذى يبالغ فى الرحمة بالانسان

فيريده له الحياة شعبان ريان معطل الحرية ، قد ضرب بين عقله وبين الأشياء والمعاني بحجاب فلا يتناولها ، وحيل بين مشاعره وبين موضوعات غداها ، فلا تتحرك بل تموت .

أعجب من الذى يظن الحياة شيئا والحرية شيئا آخر ، ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية ، هى المقوم الأول للحياة ، ولا حياة الا بالحرية .

أجل ان المرء يحفظ حرية الفكر ، وحرية المشاعر ، أى يحفظ حرية الطبيعة حتى فى غيابة السجن ، يحفظها فى كل حال هو عليها ما دامت روحه فى جسده . انه خلق حرا . حر الإرادة ، حر الاختيار بين الفعل والترك ، حرا فى كل شئ حتى فى أن يعيش وفى أن يموت متى قدر له .

لا فائدة من حرية معطلة

ان هذه الحرية الطبيعية لا فائدة منها اذا تعطلت من آثارها ، فالذى سجن ، والذى منع الكلام ، والذى منع الكتابة . . كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم ، ولكنهم فقدوا الانتفاع بها ، أى فقدوا بذلك الحرية المدنية .

لا أريد بذلك أن أتصدى للتعريفات الاصطلاحية لأنواع الحرية ، ولكن جردنا اليه التدليل على أن الحرية المعطلة عن الاستعمال هى فى حكم المفقودة ، وأن الحرية الطبيعية الملازمة للإنسان لا يصح أن تسمى حرية الا اذا كان ميسرا له استعمالها . رأيت ان المرء يرى الطريق بعينيه المكتوفتين ، لكن العين المعصوبة ، واليد الموثوقة كلتاهما فى حكم المعدومة . . انما يكون المرء حرا بمقدار ما لديه من وسائل استعمال هذه الحرية . وانما يكون حيا بمقدار ما حاز من الاستمتاع بالحرية . فالحرية الناقصة حياة

حياة ناقصة • وفقدان الحرية هو الموت ، لأن الحرية هي معنى الحياة •

طبعنا على حب الكمال

طبعنا على حب الكمال في حياتنا ومعاداة كل العوارض التي تعرض لنا في طريق المثل الأعلى للمعيشة المستكملة وسائل الحرية وآثارها • ولا خيرة لنا فيما طبعنا عليه • • وسواء آكان هذا الشوق الطبيعي الى حياة الحرية مصدر سعادة أم مصدر شقاء ، فإنه على كل حال نار تتأجج بين ضلوع الحي لا تبرد أو تصل به الى المرغوب • أجل أن المثل الأعلى ليس نقطة ثابتة ، ولا غرضاً محدود المسافة يمكن بلوغه • • بل كلما بلغناه انتقل شبحه أمامنا الى نقطة أخرى على بعد مرمى النظر لسنا بالغية ولا منصرفين عن التشبث بتركه ، بل تسوقنا اليه حاجة لا قبل لنا بالصبر عن قضائها • • ولو كلفنا أن نركب متن التعسف ؟!

ولهذا يستغلق علينا فهم الأباطيل القديمة التي كانت الخطرسة الجنسية تأخذ بها الكتاب ليسقطوا في هاوية التناقض •

يقولون أن بعض الناس خلق للسيادة أبداً ، وبعضهم خلق للعبودية أبداً • ولا نزال نرى هذا خطأ يتردد في آراء الساسة المستعمرين على صورة أقل شناعة ، وبعبارة أكثر اثتلافاً مع مدنييتنا الحديثة • • يضعون أصابعهم في أعينهم ، اذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات الصادقة هي هذه الجزئية : « بعض الانسان لا انسان » •

كذبت فلسفتهم

كذبت فلسفتهم ، وصدق الذي يشعر به كل انسان منا في نفسه من الميل الى الرقي في كل شيء ، والى الحرية قبل كل شيء •

صدق هذا الأثر الذي نجده في طليق الأسير أو السجين يوم إطلاقه ،
وفي محاولة العقول أن ينشط من عقاله . صدق ذلك الالم الذي
يجده ذو الفكرة العلمية من حبس حرите عن التصريح بها ، فتظل
تجول في نفسه ، ويغلى في صدره حب ابدائها ، ويقلق ذلك خاطره ،
ويكد ضميره ، ويحتوى على كل مشاعره ، حتى يفضل الموت في
ارضاء هذا الحب على الحياة في كتمانها . وكم من عالم استعجب
الموت على الحياة في سبيل حبه لحرите العلمية . . فمنهم من قتل ،
ومنهم من أحرق ، ومنهم من حبس أو عذب . وجلهم من تلك الأمم
التي يقولون انها خلقت لغير السيادة . فاذا وجدت عبدا لم يؤثر
الحرية على العبودية ، ولم يطب نفسا بالعتق من الرق ، فذلك
مثل من الأمثلة النادرة في بنى الانسسان ، وليس قاعلة يصح
الأخذ بها .

ان الذى يراجع الماضى لا يجد أمة من الأمم المخلوقة للعبودية
— كما يزعمون — الا قاتلت عن حريتها . واذا كان اصدق المعلومات
هى تلك المعلومات التى تقدمها لنا المشاهدة الواقعة ، فالانسسان
— على الرغم من فلسفة المستعمرين — حر بطبعه ميال الى الحرية ،
ميال الى الارتقاء فيها الى المثل الأعلى ، وفي سهولة الوسائل الموصلة
اليه .

الحرية طبيعية

الحرية طبيعية وميل الناس الى تحصيلها طبعى بالضرورة ،
يشتد ويظهر مع القوة الحيوية ويضعف وتخمد آثاره مع الضعف ،
فكما أن القوى لا يموت جوعا كذلك لا يصبر على الحياة البعيدة عن
المثل الأعلى للحرية .

والقد أصبحنا في بلادنا ندرك الحرية بمثلها الاصلى الذى
يأتلف مع شرف الانسان في هذا الزمان . فقد أصبحنا نمتعض من

كل فكرة ومن كل قانون ومن كل عمل يسس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية والدينية في غير الحدود المتفق عليها في أعلى البلاد المدنية وأصبحنا كذلك نرى أن الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الأمة هي حكومة الدستور . ومنا من لا يخشى أن يصرح بأن استقلال الأمة هو الطلبة الكبرى التي يجب أن توجه إليها قوى الشعب بأسره ، فلم يبق علينا للتدرج في مراقى الحرية والتقريب من مثلها الأعلى المتفق عليه بيننا ، إلا الوسائل المنتجة . فان إدارة الأمر شيء والقدرة عليه شيء آخر .

أما القوة فان طبيعتها تختلف في كل زمان ومكان تبعا لطبيعة عيشة الأمة واعتقاداتها الدينية وعاداتها وأخلاقها ، ونتيجتها تختلف دائما باختلاف طبيعة الوسائل التي يمكن استخدامها . وعندنا أن أول مظهر للقوة هي القوى المعنوية قوة الحرية العلمية فان الآراء العلمية ليس من شأنها أن تجدد من القوة القاهرة خصوصا في الأزمان الحاضرة معارضة تذكر . فاذا استخدم المتعلمون ارادتهم في اظهار حريتهم العلمية ، كان لهم من ذلك مرآة تنفعهم في تربية أخلاق الشعب وتعويدهم على حرية الرأي والصبر على الأذى الذي ينتج دائما عن حرية الرأي سواء أكان من الحكام أم من المحكومين .

ان الذين يبتغلون علينا بالقرب من المثل الأعلى من حريتنا التي أتانا الله إياها من فضله ، يجدون أدلة تقصيرنا في اظهار حرية الرأي في العلم وفي السياسة ما يحتاجون به في ارادتنا على البقاء على ما نحن عليه . فاذا أحسوا من حريتنا في الآراء العلمية الارادية قوة لا يقف أمامها استهزاء الجاهلاء ولا غضب الكبراء ولا استدراج المنافع الخسيسة ، لا يجدون مندوحة من التغلية بيننا وبين طريقنا إلى المثل الأعلى لحريتنا . ومن قصر النظر أن يظن أن هذه القوة المعنوية قوة التمسك بالحرية والتمسك على نصرتها غير كافية في تقويمنا من مثلها الأعلى . أقول ، وأؤكد أنها هي وحدها

كافية في انالتنا طلبتنا • فلنرض نفوسنا على الاستمساك بها
ولنتنظر النتيجة •

ان تقدمنا في نيل قسطنا الطبيعي من الحرية يستحيل أن
يوجد ولو كانت في أيدينا أكبر معدات القوة الوحشية ، وكان
عددنا أضعاف ما نحن عليه ، اذا كنا لا نتخلص من وصمة عبادة
الآراء والأفكار من غير تمحيص اعتمادا على مكانة قائلها • واذا كنا
لا نقطع بأيدينا تلك السلاسل التي قيدت عقولنا والأوهام التي
أفسدت علينا الاستفادة من المبادئ الجديدة • اننا اذا جربنا أن
نرفع منار الحرية في الميدان الذي لنا فيه حرية العمل وليس لنا
فيه مزاحم ولا شريك كان ذلك فاتحة خير لظهور شيء من القوة
الضرورية لظهور الحرية وتأيدها •

الأصدقاء الخمسة

ولقد أصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلها الأعلى الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان ، وصرنا نمتعض من كل فكرة ، ومن كل قانون ، ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية المدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى أعلى البلاد مدنية ، وأصبحنا كذلك نرى ان الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الأمة هى حكومة الدستور وان الطلبة الكبرى التى يجب أن توجه اليها قوى الشعب بأسره ، هى الاستقلال التام .

★ لهذا نهضنا نهضة مباركة ، وهدفنا هذا الغرض العظيم ، وبدأنا نحن الأصدقاء الخمسة : « سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، ومحمد محمود ، وأنا » . . . نفكر فى كيفية الاستفادة من المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس ويلسون فى جملتها على أن كل أمة مهما صغرت ، لها الحق فى اختيار مصيرها ، وتقرير الحكم الذى ترضاه بمحض ارادتها وحريتها .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٨ ، بدأنا نؤلف الوفد المصرى ، واستقلت من دار الكتب المصرية . . . وأخذنا نعمل فى ذلك الحين على ما جاء فى « مذكرات صديقى عبد العزيز فهمى » ، باشا (١) .
ولا أستطيع بالضبط أن أروى الآن ما جرت به الحوادث من

(١) هذه المذكرات صفحات نفيسة من الثورة الوطنية فى مصر لا غنى لقارئ تاريخ مصر عن قراءتها . . . وسننشرها قريباً فى سلسلة كتاب الهلال .

وقت تأليف الوفد ، وان كنت قد كتبت بها يوميات لكنى اضطررت
لاحراقها ، كما سأقص هنا :

بعد أن نفى الى مالطة أصحابنا الأربعة : سعد زغلول ، ومحمد
محمود ، واسماعيل صدقي ، وحمد الباسل . قامت في البلاد ثورة
عنيفة في أوائل سنة ١٩١٩ ، كانت من الخطر بحيث لم تكن
نتوقعها ، حتى لقد ألفت في مديرية المنيا جمهورية برياسة الدكتور
محمود عبد الرازق بك الطبيب ، وقطعت سكة الحديد بينها وبين
القاهرة . وكذلك قيل عن تأليف جمهوريات في بعض مديريات
الوجه البحري ، فدعشنا نحن أعضاء الوفد الباقين السلطة العسكرية
للمثول أمامها في فندق سافوي . وكان بين ضباطها العظام مستر
ايموس . . فلما مثلنا أمامها وجه القائد العام إلينا الكلام ، محملا
إيانا مسئولية الثورة . . فكان جوابي على هذه التهمة :

« ان الوفد برىء منها ، وان تبعثها تقع على السلطة العسكرية
التي نفت أربعة من رجال الوفد المصري بلا ذنب أتوه الا أن يطالبوا
بحرية بلادهم . ثم قابلت المظاهرات البريئة بالترليوز ، فغضب
أهالي البلاد لقتل أبنائهم ، وقاموا بهذه الحركة . واني أنصح
للسلطة العسكرية أن تستدعي حسين رشدي باشا ، أو عدلي يكن
باشا ، أو ثروت باشا ليؤلف وزارة تعمل على ترضية الأمة ترضية
كافية . وبهذا يقضى على الثورة »

وبعد لقائنا لرجال السلطة العسكرية بأيام قلائل ، كنت مع
صديقي عبد العزيز فهمي مجتمعين في منزل على شعراوي ، فوجدنا
علينا صديقنا الدكتور يوسف نجاس ، فقال لنا انه علم عن ثقة
ان السلطة العسكرية الانجليزية ، ستفتش بيوت أعضاء الوفد
الباقين ، وتقبض على أربعة منهم لتقتلهم بالرصاص في اليوم التالي
وتصادر أملاكهم . .

على هذا الخبر ، قمت أنا وعبد العزيز باشا ، وركبنا سيارة شعراوى باشا ، وأوصلت عبد العزيز الى منزله بمصر الجديدة . وذهبت الى بيتى بالمطرية ، فأحرق كل أوراقى السياسية ، لأنه لم يكن عندى الوقت الكافى لفرزها . وكان من بينها يوميات الوفد التى لم تخل صحيفة منها من ذكر رشدى باشا ، وعدلى باشا ، وثروت باشا . . . أحرقتها خوفا عليهم من أن يصيبهم ما سيصيبنا من عنت واستبداد ونكال .

ويلسون يوافق على الحماية

جلست بعد حرق هذه الأوراق فى مكتبى ، انتظر التفتيش والقبض حتى الصباح . ولكن لم يكن من ذلك شيء . . . وفى هذا الجين عين المارشال اللبى معتمدا بريطانيا فى مصر ، وأعلن أنه يقبل من أى كان ما يراه فى أمر وقف الثورة القائمة ، وعودة السكينة والسلام الى البلاد . فأرسل اليه الوفد تقريرا شرح فيه أسباب الثورة وعزا حداثها الى تصرف السلطة العسكرية العنيف ، ونصح بتنصيب واحد من الثلاثة المذكورين سالفاً رئيساً للحكومة ، والافراج عن المنفيين الأربعة واعطاء البلاد الترضية الكافية .

وعلى أثر وصول هذا التقرير اليه استدعانا وأخذ يناقشنا ، حتى اقتنع بما فيه ، فتألفت وزارة برياسة حسين رشدى باشا ، وصدر الأمر بالافراج عن المنفيين ، وأبيح لنا السفر الى انجلترا على باخرة عسكرية انجليزية ، ذهبنا الى مالطة ، قاصطحبنا زملاءنا : مسعدا ، ومحمد محمود ، وصدقى ، وحمد الباسل . حتى اذا ما وصلنا الى مرسيليا جاءنا تلغراف بأن مستر ويلسون رئيس الولايات المتحدة قد وافق على الحماية الانجليزية على مصر ، فكانت صلحة قوية من هذا الذى نادى بحرية الشعوب ، وأعلن مبادئه الحرة التى قوبلت فى العالم أجمع بالغبطة والاعجاب ، وبخاصة عند الشعوب المهضومة .

فى مؤتمر السلام

ذهبنا الى باريس ، وتقدمنا لمؤتمر السلام ، فأغلق أبوابه أمامنا ، وقابلنا أعضاؤه على النحو الذى أياسنا منه ، ووصفه صديقى عبد العزيز فهمى باشا فى مذكراته .

ولما وقع الخلاف بين سعد وعدلى على رئاسة المفاوضات ، وانتقل الأمر الى خصومة كان مظهرها التلاحى ، اعتزلت السياسة ، ثم عرض على ان أرجع لدار الكتب المصرية ، فرجعت اليها ، وأخذت أشتغل بها وبترجمتى لمؤلفات أرسطو ، وبالجامعة المصرية القديمة التى كان رشدى باشا رئيسا لها ، وكنت وكيلا لها .

وأذكر انى فى سنة ١٩٢٢ وضعت منهاجا لهذه الجامعة باعتبارها كلية للآداب ، وقابلت الملك فؤاد ، وعرضت عليه هذا المنهاج ، وطلبت ان تجعل الحكومة شهادتها كشهادات المدارس العليا ، ما دام منهاجا يقضى بموافقة الحكومة عليه وتمثيلها فى الامتحانات ، فكان جواب الملك فؤاد :

« ان الحكومة عازمة على انشاء جامعة ، فيمكن اعتبار الجامعة القديمة كلية آداب فيها .. » . فاعتبطت بذلك وجمعنا مجلس ادارة الجامعة والجمعية العمومية ، ليوكل رشدى باشا فى التعاقد مع الحكومة بشروط وضعت لتحقيق هذا الانضمام .

الفصل الثالث عشر

* كيف أسسنا الجامعة

* الجامعة مصدر التطور القومى

* البنات .. كيف التحقن بالجامعة

أسسنا الجامعة

ذكرت أن الملك فؤاد قال لى ان الحكومة عاجزة على انشاء جامعة تضم المعاهد والمدارس العليا ، وأنه يمكن اعتبار الجامعة المصرية كلية آداب فيها ..

على هذا الوعد عقدنا مجلس ادارة الجامعة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ لتسليم الجامعة المصرية الى وزارة المعارف العمومية . وكتبنا بذلك عقدا أمضاه أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وحسين رشدى باشا رئيس الجامعة . وعנית بأن أذكر فى شروط هذا العقد ان يكون الدكتور طه حسين أستاذا فى الجامعة الجديدة .

وقد يكون من المفيد أن أسجل فى هذه الصفحات ذلك العقد وتلك الجلسة التاريخية التى تم فيها هذا التسليم على النحو الآتى :

محضر الجلسة

نظرا الى أن الجامعة المصرية طلبت الى وزارة المعارف العمومية أن تعتبر شهادتها كشهادات المدارس العالية التي تخول التوظيف في الحكومة ، فأجابت الوزارة بما يأتي : « ليس في وسع وزارة المعارف الاعتراف بالشهادة التي تمنحها الجامعة لمتخرجيها بالكيفية المرغوبة ما دامت بعيدة عن الاشراف على الدراسة فيها » .

ولما كانت الوزارة معترضة انشاء جامعة أميرية فسيكون بالضرورة بين أقسامها كلية للآداب قد تنافس كلية الآداب للجامعة المصرية . فإذا رأيتم تلافيا لهذا التنافس ضم كلية الآداب بالجامعة المصرية الى وزارة المعارف ، فان النظام العام الذي يوضع للجامعة الأميرية سيكون شاملا لها فتصبح نواة لقسم الآداب بها .

ومتى تم هذا الضم شرعت الوزارة في فحص منهج الدراسة بهذه الكلية ونظام الامتحان بها ليكون ذلك توطئة لتقدير درجة الشهادة التي تمنحها .

فإذا ما وافقت ادارة الجامعة على وجهة النظر هذه فان وزارة المعارف مستعدة للنظر فيما يلزم لتحقيق هذا الغرض .

ونظرا الى ان الجامعة المصرية المؤسسة في سنة ١٩٠٨ تحت رئاسة سمو الأمير أحمد فؤاد - جلالة الملك فؤاد الأول - انما كان الغرض منها القيام بأمر التعليم العالي الحر ، مقام الحكومة التي لم تكن وقتئذ لتوجه العناية الكافية الى هذا الأمر .

ونظرا الى أن الجامعة المصرية لقلة مواردها ولعدم اعتبار شهادتها في التوظيف بوظائف الحكومة لا تستطيع أن تتم تكوينها بإنشاء الأقسام المختلفة للعلوم . بل هي بحيث لا تستطيع بسهولة أن توسع كلية الآداب الى الحد المرغوب فيه .

ونظرا الى أن الذى يهم القائمين بالجامعة ، هو أن توجد بالبلاد جامعة مستقلة حرة يرتقى فيها التعليم العالى الى المستوى الذى يأتلف مع أطماع البلاد فى الارتقاء العلمى . لذلك رحبوا بفكرة توحيد الجهود التعليمية واندماج الجامعة المصرية فى الجامعة الجديدة . وأهم ما اشترطوا لذلك ضمانه حرية الجامعة الجديدة فى ادارتها المالية ووضع برامجها وتنفيذها ثم استيفاء آثار الحركة القومية المباركة التى أوجدت الجامعة المصرية . ولهذا اقترح أحد عشر عضوا من أعضاء الجامعة المصرية على جمعيتهم العمومية ان تفوض مجلس ادارتها فى تسليم الجامعة الى وزارة المعارف بالشروط التى لا تخرج فى شئ عن ضمانه حرية التعليم واستقلاله واستبقاء الحركة القومية نحو التعليم فى سنة ١٩٠٨ فقررت الجمعية العمومية ذلك بالاجماع وندب مجلس الادارة الى تحقيق هذه الغاية حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيس الجامعة المصرية .

بناء على هذه الاعتبارات

اجتمع حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيس الجامعة المصرية وحضرة صاحب المعالي أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى يوم الأربعاء ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ بوزارة المعارف العمومية لتحقيق هذه الغاية .

وبعد الاطلاع على الوثائق الآتية :

١ - كتاب وكيل الجامعة المصرية الى وزارة المعارف العمومية

المؤرخ فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣ .

٢ - جواب وزارة المعارف العمومية المؤرخ فى ٢٠ نوفمبر

سنة ١٩٢٣ ردا على ذلك الكتاب .

٣ - الاقتراح المقدم من أحد عشر عضوا من أعضاء الجامعة المصرية الى جمعيتها العمومية .

٤ - محضر جلسة الجمعية العمومية للجامعة المصرية المنعقدة في ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

٥ - محضر جلسة مجلس ادارة الجامعة المصرية المنعقدة في ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

٦ - مشروع لائحة الجامعة الجديدة .

٧ - مشروع الأمر العالي بتأليف الجامعة المذكورة بعد الاطلاع على هذه الوثائق وارقاق صورها بهذا المحضر .

وبعد تبادل النظر في كل جهة من جهاته بين الطرفين تم الاتفاق على ما يأتي :

المادة الأولى

قد تنازل باسم الجامعة المصرية حضرة صاحب اللولة حسين رشدي باشا رئيسها عن هذه الجامعة مع كل ما تملكه من منقول وعقار الى وزارة المعارف العمومية على الشروط الآتية :

١ - ان تكون الجامعة المصرية معهدا عاما محتفظة بشخصيتها المعنوية وتدير شئونها بنفسها بكيفية مستقلة تحت اشراف وزارة المعارف العمومية كما هي الحال في جامعات أوروبا .

٢ - أن تقوم الحكومة باتمام النظام الحالي الذي لا يشمل سوى كلية في الآداب بأن تدمج في الجامعة مدرستي الحقوق والطب بعد تحويلهما الى كليتين وان تضم اليها كلية للعلوم . ويجوز ان تضم اليها كليات أخرى فيما بعد .

٣ - ان تستعمل نقود الجامعة البالغ قدرها نحو ستة وأربعين ألف جنيه في البناء احتراماً لشروط بعض الواقفين .

٤ - ان تحترم تعهدات الجامعة نحو أساتذتها وموظفيها الحاليين . أما فيما يتعلق بالدكتور طه حسين فقد رأى نظراً لحالات الشخصية ان يبقى أستاذاً بكلية الآداب .

٥ - ان يكون من مجلس إدارة الجامعة المصرية الحالي عضو أو أكثر في مجلس إدارة قسم الآداب وفي مجلس إدارة الجامعة وذلك في الدور الأول من التشكيل استيفاء لآثار النهضة القومية التي أوجدت الجامعة المصرية .

المادة الثانية

قبل حضرة صاحب المعالي أحمد زكي أبو السعود باشا وزير المعارف العمومية باسم هذه الوزارة هذا التنازل واستلام الجامعة المصرية وما تملك من منقول وعقار لادماجها في الجامعة الجديدة بالشروط الخمسة المبينة بالمادة الأولى .

المادة الثالثة

ينفذ هذا الاتفاق بعد التصديق عليه من مجلس إدارة الجامعة المصرية الحالي .

المادة الرابعة

كتب من هذا الاتفاق نسختان تحفظ احدهما في وزارة المعارف العمومية وتحفظ الثانية في محفوظات كلية الآداب التابعة للجامعة .

تحريرا بوزارة المعارف العمومية

في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣

رئيس الجامعة المصرية

حسين وشي

وزير المعارف العمومية

أحمد زكى أبو السعود

رسالة الجامعة

وعلى أثر تكوين الجامعة الجديدة وضسنا لها قانونا رأى الشارع فيه ان رسالة الجامعة يجب ان تكون أوسع مجالا من ان تحد بحدود معينة ، فجاء نص رسالتها مرنا يتسع لكل ما تقدر عليه من الألوان المختلفة لخدمة العلم والقيام بالتعليم . وقد جاء فى مادته الثانية « أن اختصاص الجامعة يشمل كل ما يتعلق بالتعليم العالى الذى تقوم به الكليات التابعة لها . وعلى وجه العموم ، فان عليها مهمة تشجيع البحوث العلمية والعمل لرقى الآداب والعلوم فى البلاد » .

واعتمادا على هذا النص المرن ، الذى يتناول كل تطور جامعى لخدمة العلم والتعليم والآرب والفنون المختلفة فى البلاد ، اعتمادا على هذا النص كانت رسالة الجامعة متعددة النواحي .

فمن رسالة الجامعة ان تقوم البحوث العلمية فى العلوم وفى الآداب التى تنتج عننا كما أنتجت عند غيرنا الزيادة فى النظريات العلمية التى هى فى تطور مستمر ، والتى تنتج الوصول الى اكتشافات جديدة تضاف الى ما اكتشفته الجامعات الأخرى مما له صبغة علمية بحتة ، ومما له تطبيقات عملية تنفع الناس فى أن تسخر لهم قوى الطبيعة وموارد الطبيعة . وليس خافيا ان الجامعة اذ تقوم بهذه الرسالة تحمل عن مصر واجبها من المشاركة العامة فى رقى العلوم والمعارف فى العالم .

ومن رسالة الجامعة تربية شبيبة الأجيال المتعاقبة لتهيء للبلاد قاداتها فى جميع مرافقها . ولا شك ان قوة الأمة ومنعتها

واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة ليست آخر الأمر الا نتيجة لتربيتها الجامعية .

ومن رسالة الجامعة نشر الثقافة العلمية والأدبية في جميع الطبقات سواء أكان ذلك بإباحة الانتساب الى معاهدها المختلفة من غير قيد ولا شرط ، أم بإلقاء المحاضرات العامة في العلوم والآداب والفنون ، أم بنشر المؤلفات في كل فرع من الفروع .

ومن رسالة الجامعة مساعدة التطور الاجتماعي بكل ما في وسعها من ضروب التجديد في اللغة ، التجديد في النثر والشعر ، التجديد في نظرة الناس الى الفنون الجميلة والبحث في وجوه ترقيتها وشيوعها . ولا يفوتني ان انبه الى ان هذه الرسالة تتناول أيضا الموسيقى والغناء ، لما لهما من الأثر الطيب في الأخلاق ، بل لأنهما كذلك لهو جميل لا يبد منه . وعلى كل أمة ان ترقى أسباب لهوها المرح كما عليها ان ترقى أسباب جدها العابس .

وأخيرا ، فان الجامعة بما هي من أكبر الوحدات الاجتماعية عددا وأسماءها مكانة ، وأخطرها مسئولية ، وأشملها رسالة هي بكل أولئك مصدر اشعاع يشع منه التضامن القومي . ففي العائلة يولد التضامن ، وفي المدرسة ينشأ ، وفي الجامعة يسب ويؤتى كل ثمراته ، ويضرب المثل الأعلى للتضامن في جميع طبقات الشعب .

البنات . . كيف التحقن بالجامعة ؟

وبهذه المناسبة انبه على سبيل الاستطراد ان خطأ الجمهور في فهم رسالة الجامعة من أنها تنحصر في تحضير موظفين لادارة الحكومة . والواقع ان هذا الفهم لا ينبغي ان يكون من أغراض الجامعة الا عرضا .

ويتصل بخطأ الجماهير في فهم أغراض الجامعة ، تلك المسألة التي كانت شائكة قليلة الانتصار في الرأي العام . وهي مسألة قبول الفتيات المصريات طالبات في الجامعة لهن ما لآخواتهن الطلبة من الحقوق ، وعليهن ما عليهم من واجبات . ولا أخفى اننا قبلنا الطالبات أعضاء في الأسرة الجامعية في غفلة من الدين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشابات بأخواتهن في الدرس ، فقد حدث أن طلب إلى بعض عمداء الكليات في أول سنة لافتتاح جامعة فؤاد أن تقبل فيها البنات الحائزات للبيكالوريا ، فأسررت لهم في ذلك الحين أن هذه المسألة شائكة ، واني أشك في رضى الحكومة عنها . وعلى ذلك قررنا فيما بيننا أن نقبل البنات الحائزات على البكالوريا ، من غير أن تثار هذه المسألة في الصحف أو في الخطب ، حتى نضجع الرأي العام والحكومة معا أمام الأمر الواقع . وقد نجحنا في ذلك وبعد أن سرنا في هذا النهج عشر سنوات حدث ما كنا نتوقعه ، فقد قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط ، فلم نأبه لها ، لأننا على يقين من أن التطور الاجتماعي معنا ، وأن التطور لا غالب له . ومعنا العدل الذي يسوى بين الأخ وأخته في أن يحصل كلاهما على أسباب كماله الخاص على السواء ، ومعنا فوق ذلك منفعة الأمة من تمهيد الأسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا في الارتقاء القومي - كل أولئك جعلنا لا نحفل بهذه الضجة التي ما لبثت أن ذهب بها الزمان !

فكرة أصبحت حقيقة

وفي ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ احتفلت الجامعة بوضع الحجر الأساس لبانيها الحالية بحضور جلالة الملك فؤاد وكان هذا اليوم تاريخا مشهورا . ففي منتصف الساعة الثانية عشرة أقيم احتفال كبير في المكان الجديد بالجيزة دعى إليه عليه القوم من الأمراء ورجال

الدين والوزراء والآداب . وبعد أن وصل الملك فؤاد ، وقف وزير المعارف في ذلك الحين على الشمسي باشا ، فألقى خطبة بين يديه . ودعا الملك لوضع الحجر الأساسي بيده . وألقيت أنا خطبتي كمدير للجامعة . وقد سجلت فيها الأدوار التي مر بها التعليم في مصر ، وهي ثلاثة أدوار :

دور الدعاية ، ودور البدء في التنفيذ ، ودور النضام . . فاما الدور الأول فيبتدىء من يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اذ اجتمع نخبة من أهل الغيرة على التربية في دار المرحوم سعد زغلول باشا وتعاقدوا على الدعوة لانشاء الجامعة ، وقرروا فيما قرروا ان تكون الجامعة بمعزل عن السياسة . وقد أقبل الناس على الاكتتاب فيها والتبرع لها . واجتمعت جمعية المكتتبين في ديوان الأوقاف في ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ تحت رئاسة الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد الأول) وسموها الجامعة المصرية ، ونفحتها الحكومة اعانة سنوية ، كما نفحتها الأوقاف خمسمائة جنيه اعانة سنوية أيضا .

أما دور التمديد ، فكانت بمحاضرات الثقافة العامة التي كان يشرف عليها يوميا رئيس الجامعة وبارسال بعثات علمية للجامعة بلغ عددها أربعة وعشرين للتخرج في العلوم ، ولينحضروا أنفسهم ليكونوا معلمين فيها .

وأما دور النضام ، فكان بنقل الجامعة القديمة الى الجامعة الجديدة على نحو ما وصفت في السطور السابقة وقد بلغ عدد طلبة الجامعة في سنة ١٩٢٨ ويوم تأسيس مبانها ٢٣٤١ طالبا . وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك حتى وصل الى ما وصل اليه الآن .

الفصل الرابع عشر

من الوزارة الى المجمع اللغوى

- ★ كيف دخلت الوزارة !
- ★ عودتى الى الجامعة
- ★ لماذا استقلت من الجامعة

كيف دخلت الوزارة

لما أسند الملك فؤاد الأول الى محمد محمود باشا أمر تأليف الوزارة فى يونية سنة ١٩٢٨ دعانى وقتئذ الى الاشتراك معه فى الحكم ، فاعتذرت له مؤثرا العمل كمدير للجامعة بعيدا عن السياسة ومشاكلها ، فقال لى رحمه الله :

— وهل برضيك يا صديقى ان تتركنى وحيدى ؟ . . .
فمست هذه العبارة شعورى ، وقبلت الاشتراك معه فى الوزارة . . .
وكان من حظى ان أتولى وزارة المعارف ، وعنى الوزارة التى تتفق وميولى الشخصية وما أهدف اليه من خدمة الأمة عن طريق العلم والتربية والتعليم ، طريق الحرية والاستقلال ، فان التعليم هو الأساس الذى يبنى عليه تحقيق الأطماع القومية . ولو أن العظمة القومية التى تُبغىها مصر تنال بالجهل ، وبفتنك الروابط القومية الدالة على عدم التربية ، لكان ذنبا علينا ان نفكر فى حال التعليم والأخلاق عندنا . ولا جدال فى ان العلم ضرورى لتقدمنا بل هو

ضرورى لحياتنا الحاضرة ، وانه هو السلاح الوحيد الصالح للانتصار
فى معترك الحياة للفرد ، والعامل الوحيد للاكتشافات والاختراعات
وقوام هذه المدنية الحديثة . كما ان تربية الأخلاق هى أساس
قوة الأمم .

وقد قال جوستاف لوبون : « ان الرومانيين فى زمن انحطاطهم
كانوا أشد ذكاء من أجدادهم الأشمداء ، ولكنهم فقدوا الخواص
الأخلاقية كالصبر والعزيمة ، والثبات ، والاستعداد لتضحية النفس
فى سبيل الغاية ، والاحتفاظ باحترام القوانين . تلك الخواص
الأخلاقية كانت هى سر عظمة آبائهم الأولين » .

بعد ذلك أعود ، فأقول ان وزارة المعارف حين أسندت الى
ارتجت للعمل فيها لما قدمت . فقد اهتمت أول ما اهتمت بتطبيق
اللامركزية ، وقسمنا العمل فيها باعتبار ان الوزير رجل سياسى ،
لا يشغل الا بالمشروعات الجديدة وتطبيق سياسة الوزارة ، وليس له
معرفة بموظفى الديوان ، فأمرهم ينبغى ان يتعلق بوكيل الوزارة
وشهادات المراقبين .

العودة للجامعة

لم أستمر طويلا فى وزارة المعارف ، لأن وزارة محمد محمود
باشا لم يزد عمرها عن خمسة عشر شهرا وبضعة أيام اذ تآلفت فى
٢٥ يونية سنة ١٩٢٨ واستقالت فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٩ بعد
عودة رئيسها من مفاوضاته بلندن مع مستر هندرسون . وقد
اعتكفت بين كتبى وأوراقى حتى كانت أوائل سنة ١٩٣٠ حين
استدعيت للعودة مديرا للجامعة ، فارتجت لاستئناف نشاطى بين
أبنائى شباب الجامعة . وبين زملائى أساتذتها ، واغتنبت كل
الإغتياب لأنى أمضيت عهدا غير قصير فى العمل الجامعى ، وألفت

هذه البيئة الجامعية التي تقوم على الانخراط للعلم والتضحية في خدمته ، والاستقلال في الرأي والفكر والعمل – وأقول الاستقلال لأن أساس التعليم الجامعي حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال ، ولأن التربية الجامعية قوامها حرية العمل والبعد عن التأثيرات الحكومية ، وتأثيرات البيئات العامية ، وعن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة .

استقالتي من الجامعة

وقد حرصت منذ توليت منصب مدير الجامعة على ان تكون بعيدة عن هذه التأثيرات وان يكون استقلالها محل الاحترام والقداسة . ولكن حدث في مارس سنة ١٩٣٢ ان اعتدت وزارة المعارف على هذا الاستقلال ، فنقلت الدكتور طه حسين من عمادته بكلية الاداب الى احدى الوظائف بديوان الوزارة دون أخذ رأي الجامعة ، وان لم تكن الوزارة في ذلك قد تجاوزت حدود القانون الجارى العمل به الا انها تجاوزت حدود التقاليد الجامعية ، فغضبت لهذا الاعتداء على هذه التقاليد ، وقابلت دولة رئيس الوزراء في ذلك الحين اسماعيل صدقي باشا ، وشرحت له هذا الموقف الذى يتناقى مع التقاليد الجامعية ، ويسىء الى الجامعة وقلت له ان الجامعة لاتستغنى عن طه حسين . واقترحت عليه تلافيا للضرر ، واحتراما لرأى الوزير حلمى عيسى باشا ، ان يرجع الدكتور طه بك استاذ بكلية الآداب لا عميدا . وقد وافقنى رئيس الوزارة على اقتراحى ، وفى اليوم التالى علمت برفض اقتراحى ، وتنفيذ رأى الوزير . فلم أذهب الى الجامعة ، وحررت استقالتي وبعثت بها الى وزير المعارف العمومية فى هذا الكتاب التالى :

« هليوبوليس ٩ مارس سنة ١٩٣٢ »

« حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية »

« سيدي الوزير »

« أتشرف بأخبار معاليكم أني أسفت لنقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب الى وزارة المعارف ، لأن هذا الأستاذ لا يستطيع

فيما أعلم ان يعرض الآن على الأقل ، لا من جهة الدروس التي يلقيها على الطلبة في الأدب العربي ومحاضراته العامة للجمهور ، ولا من جهة هذه البيئة التي خلقها حوله وبث فيها روح البحث الأدبي وهدى الى طرائقه . ثم أسففت لأن الدكتور طه حسين أستاذ في كلية الآداب تنفيذاً لعقد تم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف وعلى الأخص لأن نقله على هذه الصورة بدون رضى الجامعة ولا استشارتها كما جرت عليه التقاليد المطردة منذ نشأة الجامعة فيما أعرف - كل ذلك يذهب بالسكينة والاطمئنان الضروريين لاجراء الأبحاث العلمية . وهذا بلا شك يفوت على أجل غرض قصدت اليه من خدمة الجامعة .

» من أجل ذلك قصدت يوم الجمعة الماضي الى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، واستعنته على هذا الحادث الجامعي الخطير ، واقترحت على دولته تلافياً للضرر من ناحية ، واحتراماً لقرار الوزير من ناحية أخرى أن يرجع الدكتور طه حسين الى الجامعة أستاذاً لا عميداً ، خصوصاً أنه هو نفسه ألح على في أن يتخلى عن العمادة منذ شهر فلم أقبل ، فتقبل دولة الرئيس هذا الاقتراح بقبول حسن ، وأكد لي انه سيشغل بهذه المسألة منذ الغد فاشتغل بها الى أن علمت الآن أن اقتراحي غير مقبول وان قرار النقل نافذ بجملته وعلى اطلاقه .

ومن حيث أنى لا أستطيع ان أقر الوزارة على هذا التصرف الذي أخشى ان يكون سنة تذهب بكل الفروق بين التعاليم الجامعية وأغيارها ، اتشرف بأن أقدم بهذا الى معاليكم استقالتى من وظيفتى ، أرجو قبولها كما أرجو ان تتقبلوا شكري على ما أبدىتم من حسن المعاملة الشخصية مدة اشتراكنا في العمل ، وان تتقبلوا فائق احترامى ،

ثلاث مخالقات !

هذا هو خطاب استقالتي . وهو يدل على ان وزارة المعارف ارتكبت في حادث نقل الدكتور طه حسين ثلاث مخالقات : الأولى - خاصة باستقلال الجامعة ، والثانية - خاصة بمصلحة التعليم الجامعي وحرمانه من هذا الأستاذ النابغ ، والثالثة - خاصة بالعقد الذي أبرم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف حين نقلها الى الجامعة الجديدة وقد اشترط في هذا العقد ان يكون الدكتور طه حسين أستاذا بكلية الآداب .

قبلت استقالتي . ومكثت بعيدا عن الجامعة حتى أبريل سنة ١٩٣٥ حين جاء نجيب الهلالي باشا وزيرا للمعارف في وزاره محمد نسيم باشا الثانية ، فجاءني وطلب الى العودة الى الجامعة ، فاشتربت ان يعدل قانونها بحيث ينص فيه على انه لا ينقل استاذ منها الا بعد موافقة « مجلس الجامعة » وقد بر نجيب باشا بوعده ، وطلب تعديل القانون ، وعدل فعلا .

وفي تلك السنة طلبت ان يضم الى الجامعة بعض الكليات فضمت كلية الهندسة ، وكلية التجارة ، وكلية الزراعة ، وكلية الطب البيطري .

مكثت مديرا حتى أوائل أكتوبر سنة ١٩٣٧ . وفي ذلك الحين اشتد الخصام بين طلبة الجامعة على المسائل الحزبية ، لأن الأحزاب كانت تتصل بهم اتصالا يضر بالأخفاء الجامعي ، ويسقط قيمة الشئائل الجامعية ، فطلبت من وزارة الداخلية تعيين كونستبلات لحفظ النظام ، لأن البوليس لا يجوز له أن يدخل الحرم الجامعي ، فلم تجب الداخلية طلبى . لذلك استقلت للمرة الثانية .

بعد ثلاثة أشهر - أى فى ٣١ ديسمبر من تلك السنة - تألفت وزارة محمد محمود باشا الكبرى . وقد اشتركت فيها جميع الهيئات السياسية ما عدا الوفد ، والهيئة السعدية ، وكنت وزير دولة فى هذه الوزارة ، ثم أجريت الانتخابات ، وكلف محمد محمود باشا مرة ثانية بتأليف الوزارة ، فكنت بها أيضا وزير دولة ، ثم وزيرا للداخلية بضعة أشهر . ثم ظهر لى ان المصلحة السياسية تقضى باشتراك الهيئة السعدية فى الوزارة ، فعرضت هذا العرض على خشبة باشا ، وأصررت على أن أخرج من الوزارة لأفسح الطريق لغيرى من السعديين .

ودعت الجامعة سنة ١٩٤١

وبعد ذلك بقليل زارنى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وطلب الى الرجوع الى الجامعة ، فاعتذرت ، ثم جاءنى مرة ثانية من قبل محمد محمود باشا ، والى على ورجائى أن أضع شروطى ، فقلت .

- لا شروط لى الا أن يبتعد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة ، لان اتصالهم بهم كان يعضى دائما - كما ذكرت - الى فقدان الاخاء الجامعى بينهم . وذلك من أضر الأشياء على التربية الجامعية .

فاجابونى لطيبى ، وقبلت الرجوع الى الجامعة . ولكن لم يمض قليل حتى أخبرتنى أحد الوزراء أن الطلبة متصلون بوزراء الأحرار الدستوريين فقدمت استقالتي لمحمد محمود باشا ، فاعتذر ، وأكد لى أنه لا يعلم ذلك وأنه سيصدر أمرا مشددا بعدم اتصال الطلبة بالوزراء لأغراض سياسية فقيمت فى الجامعة الى سنة ١٩٤١ .

اذ عرض على رئيس الحكومة وقتئذ حسين سرى باشا أن أكون عضوا
في مجلس الشيوخ ، فقبلت ذلك ، لأنني أحسست بأني محتاج الى
الراحة بعض الشيء من أعمال الجامعة بعد أن خدمتها في عهدها
القديم وعهدا الجديد زمنا طويلا . ثم توليت بعد ذلك رئاسة
« مجمع اللغة العربية » ومكثت فيه مع رجال أحبهم وهم رجال اللغة
والعلم والأدب .

الفصل الخامس عشر

الاخلاق

وكيف ينبغي أن تكون

لتحقيق سلام عالمي

★ التعاون في سبيل السلام

★ هل الحرب طبيعية ؟

★ أدب السياسة الدولية

★ يجب القضاء على الاستعمار

التعاون في سبيل السلام

التعاون العام بين أمم العالم موجودة على وجه متقطع وكيفما أن يكون . ليس خاضعا لنظام معين . غير أن هذا ليس هو التعاون الذي يقصد اليه ميثاق الاطلنطي بل التعاون المقصود بهذا الميثاق هو التعاون المستمر الذي يمنع الاعتداء ويؤدي الى السلام الدائم .

بادئ بدء لا ينبغي أن نخدع أنفسنا فيما يعترض هذا التعاون من صعوبات أعسرهما تذليلا هو الايمان به . فاذا نحن تشبثنا بسنن الماضي وما ألفناه من أخلاق الناس على العموم وأخلاق قادة

(١) أردنا أن نختم هذه القصة التاريخية التي أعلاها استاذ الجيل احمد لطفى السيد على رئيس التحرير بهذه المحاضرة القيمة التي ألقاها سيادته في قاعة بورت بالجامعة الأمريكية في مساء الجمعة ٢٩ يناير سنة ١٩٤٣ .

الشعوب على الخصوص ، وما سجل التاريخ من الأعياب السياسية وغدورها وقدرنا قوة أنصار الحرب والعاملين عليها والمنتفعين من ورائها ويشسنا من أن نقطع الصلة بين ماضى الانسانية وبين مستقبلها فى هذا الصدد ، فما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه التعاون الذى ندعو اليه بنظام جمعية الأمم الماضية • ولا يرى أنصار الاعتداء على كل هذه النجلىة الا أنها صلف تحت الراعدة •

أما اذا رجونا الخير وقدرنا ما نحن فيه اليوم من الضرورات الاجتماعية والخرج السياسى وقدرنا أن العالم أصبح لا يطيق بعد الآن حروبا على غرار الحرب الحاضرة ، وقدرنا حق قدره الارتقاء الاجتماعى فى العالم ، ثم قدرنا أن هذا التعاون المرجو لم يأت طفرة بل هو فكرة اختمرت فى ضمير العالم وتداولتها بالبحث وبالتجربة عدة أجيال ، وقدرنا أن التجربة القاسية للأخطاء الماضية ستنتفع العالم فى تسديد خطاه الى الخير ، متى قدرنا كل ذلك وجب أن نتقبل مشروع التعاون المانع من الاعتداء والمفضى الى السلام الدائم بغاية الارتياح وأمانا به وعملنا على تحقيق وسائله • فلقد آن لضمير العالم أن ينتبه ويجعل الاخاء الانسانى حقيقة واقعة بعد أن لم يكن الى الآن الا لفظا ليس له ما يدل عليه •

الواقع من أمر الناس فى الأمم المختلفة وفى المدينات المتعاقبة أنهم بوازع من قانون الأخلاق الذى نشأ بنشوء الدولة ، وبوازع من سلطان البوليس والقضاء ، وقد اعتادوا أن يتعاونوا فى معيشتاتهم المدنية بالحسنى وتركوا عاداتهم الأولى فى البديوان والجبرى على أحكام « حق الأقوى » التى ألفوها أزمانا طويلا فيما قبل المدينات المنظمة • هذا هو حال أفراد الناس الآن فى الأمم المتقدمة ، منازعاتهم يفصل فيها القضاء وينزع سلطان البوليس بعضهم عن الاعتداء على بعض ، فأصبحوا يرون جريمة داعية الى الاحتقار ومستحقة للعقاب

ما كانوا فى حال البداوة يمدحون به ويجعلونه مناطا للعزة ومجلبة
للشرف والفخار .

اذا ليس الظلم والعنف فى الناس أمرا طبيعيا لامناص منه
كما قد يظن ، انما كان ذلك فيهم قبل نظام الدول عادة اعتسدها
آلافا لا تحصى من السنين ، كان الأفراد فى كل لحظة محلا لافتراس
السباع . اقتضاؤهم ذلك أن تكون حياتهم فى حرب متصلة ودفاع
مستمر . فلما اطمأنوا من هذه الناحية استمرت عادة الهجوم والدفاع
فى أنفسهم غير أنها تحولت الى أن تكون حربا بينهم حتى قضت عليها
المدنية المنظمة بالبوليس والقضاء .

تلك حال الأفراد . وأما حال الأمم أو بالأولى حال الحكومات
فلم تجد كما وجد الأفراد تحت ضغط الضرورات الاجتماعية قانونا
للأخلاق ولا محاكم تفض النزاع بينها ولا بوليسا يمنع الحكومات
من اعتداء بعضها على بعض . بقى فيها روح الفرد الاولى . روح
القبيلة ، روح الاعتداء على الغير استعلاء عليه واستعباد له وطمعا فى
أرضه ومرافقه . وبالجمله بقيت كل حكومة حتى فى هذه المدنية
الحاضرة تضمر أن تنتزع بالقوة من أمة أخرى مالها من المرافق من
غير وازع ولا حياء . واذا فقد ظفرونا من المدنيات القديمة بأدب
للأفراد ولم نظفر بحكوماتها يمنعها من الاعتداء والطغيان .

هل الحرب طبيعية ؟

ومن العجيب أن الفلسفة اليونانية مع أنها استوعبت بحث
الأشياء الانسانية لم تتعرض ولا عن طريق التخيل الى امكان القضاء
على الحرب بين الأمم ولم تفكر فى تحقيق الاخاء الانسانى العام ولا فى
السلام الدائم . بل لعلها شجعت الحرب تارة وقست فى نتائجها
تارة أخرى . كذلك الفلسفة الرومانية والفلسفة العربية لم يكن

فيهما نظرة في ذلك الاخاء بين الأمم المختلفة كما نظرت كلتاها في
الاخاء بين أفراد الأمة الواحدة الا ما سموه « السلم الروماني » .
ومن الخير ألا نتعرض لذكره ، لأنه لا يفيد شيئا في موضوع التعاون
العالمي المنشود .

فأما الحرب من طبع الانسان فتلك فكرة انتزعها كتاب وفلاسفة
مما هو الواقع . ومن طريف ما يؤثر عن أنصار الحرب ما نقله
ايميل فاجي عن أحد التيازفة أو الصوفية القائلين بوحدة الوجود قال
« الحرب الالهية في ذاتها لأنها قانون العالم » . « الحرب الالهية في
المجد الخفي الذي يحيط بها وفي الجاذبية الخفية أيضا التي
تجذبنا اليها » . « الحرب الالهية في الحماية لموهوبة للقواد العظام »
.. الى أن قال « الحرب الالهية بنتائجها التي تعزب عن تقديرات
الناس » . قال أيميل فاجي كل هذه الجمل تساوى انه يقول :
« الحرب الالهية لأنها سخيفة » .

وبالجملة فان أهم دليل على طبيعتها هو قدمها . والدم من
حيث هو لا يصحح فاسدا ولا يفسد صحيحا . والذي يراه أنصار
السلام هو أن الحرب ليست من طبع الانسان كالعائلة والأبتوة
والعمل ، بل هي عادة تأصلت في نفوس الناس يمكن القضاء عليها
كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية التي لا شك في أن العالم
يتقدم في أمرها بنسبة ضئيلة على أثر تفكير المفكرين فيما يصلح
حال الانسان .

اذن كان لابد من ثورة على القديم في هذه الناحية أيضا .
وقد كانت هذه الثورة أول خاطر في موضوع السلام الدائم خطر
لسوللي وزير هنري الرابع . ولكن سلامه الدائم لو أنه تحقق
لما شمل الا أوربا فقط . وكذلك كان مشروع الأب سان بير في أوائل

القرن الثامن عشر . ولم تكن تلك الا بوادى لم تفد شيئا . حتى كان آخر القرن الثامن عشر اذ انبعث صوت الاخاء الانساني من جامعة كونجسبرج حين اقترح أستاذ الفلسفة فيها ايمانويل كانت انشاء حكومة أهم تمنع اعتداء بعضها على بعض . وجه نداء للأهم والملوك قال فيه « ينبغي أن تنظم الأمم سلوكها في كل دولة على قواعد الأخلاق والقانون ، كما يجب على الدول أن ترعى هذه القواعد المتبادلة مهما يكن من تمويه الاعتراضات التي تستنتجها السياسة من التجربة . وحينئذ لا تستطيع السياسة الحققة أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تتبع فيها أوامر على الأخلاق . فان السياسة منى اتحدت بعلم الأخلاق ، لم تعد بعد ذلك فنا صعبا ولا معقدا .

ان الأدب يفك العقدة التي لا تستطيع السياسة حلها .
يجب اعتبار حقوق الانسان مقدسة ولو ضحى في ذلك الملوك بأكبر الضحايا . لا يمكن في هذا الصدد التنازع بين الحق وبين المنفعة .
وان السياسة يجب أن تركع أمام الأدب .

لكن هل استمع لهذا النداء الكريم الملوك والحكومات ، نعم أظن أن حكومات الأمم الكبرى التي اجتمعت في مؤتمر فيينا بعد هذا النداء بتسعة عشر عاما قد استمعت لهذا النداء ، لكن لا تفعل به حقيقة ، بل لتخدع به الرأي العام للشعوب الوداعة الطيبة التي قلما تحتل نصيبا من اجرام حكوماتها . وهاكم مذكرة الوزير جنز زميل مترنيخ رئيس المؤتمر المؤرخة في ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٥ .

« ان أولئك الذين اجتمعوا في المؤتمر وكانوا يعلمون حق العلم طبيعته وأغراضه لا يكادون يجحدون على تطوره أيا كان رأيهم في نتائجه . ان الكلمات الفخمة مثل « اعادة النظام الاجتماعي » و « تجديد المذهب السياسي لأوروبا » و « السلام الدائم المؤسس على توزيع للسلطان » الخ . . . انما نطق بها لتطمين الناس ولتفيض على

هذا الاجتماع الحافل كرامة وعظمة • لكن الغرض الحقيقي للمؤتمر ، قد كان توزيع أسلاب المتهورين بين القاهرين •

أدب السياسة الدولية

هذا نموذج من أدب السياسة الدولية يتخذة السياسة لمجدهم ومجد ملوكهم ويلقوا به دروسا في الشر والظلم على الناس أجمعين • أفكان الذين اجتمعوا حول مائدة الصلح في فرساي أصلح نية وأصدق قولا من زملائهم في فينا من قبلهم بقرن كامل ؟ لقد كان كتاب التاريخ السياسى يظنون أن مؤتمر فينا قد أخفق في مهمته مع أنه وقى العالم شر الحروب ٣٩ سنة •

فهل كان مؤتمر فرساي أسعد حظا وأجدى على الانسانية نفعا ، مع أن سلامة لم يزد عمره على العشرين عاما حتى أمكن لأحد السياسة في الخريف الماضى أن يجمع بين الحرب ويسميتها حرب الثلاثين من سنة ١٤ الى سنة ٤٤ • واذا لم يتغير الأدب السياسى عما كان في القرن الماضى • قال الكاتب المعروف « الدس هكسلى » عشية هذه الحرب الحاضرة « ان أدب السياسة الدولية هو أدب القرصان • أدب الخداع • أدب الشيخ الفيكونت الفاست ، بل لم يتغير هذا الأدب منذ عشرين قرنا حين قال الفيلسوف سسنيك : هذا هو قانون الانسانية : كل ما هو محرم عليك اتيانه وأنت فرد ، مطلوب منك اتيانه وأنت مدافع عن الدولة •

ترون من ذلك أن للأفراد أدبا جاءت به قوانين الاجتماع داخل كل بلد • فأين أدب السياسة والسياسيين ، والى أى شىء مرده ، الى محكمة الضمير وقد جرى العرف على أن السياسة لا ضمير لها ، أم الى محكمة القانون العام وليس للسياسة الدولية محكمة الا الحرب • قال برتلمى سانتهيلر لمناسبة نداء كنت :

« لقد أعلن كنت هذه المبادئ القديمة منذ ستين عاما .
ولكننا على رغم ما قطعت الأفكار العامة من مراحل التقدم في هذه
المدة ، ما أبعدنا الى الآن عن الغرض الذي ترمى اليه حكمة الفيلسوف .
والظاهر أن الملوك والأمم لم تتلق بعد دروسا قاسية .

نظن الآن أن العالم قد تلقى هذه الدروس القاسية منذ
الحرب الماضية فشرع فعلا في انشاء جمعية الأمم . لكنها لم تنجح
لأنه عند تنفيذها كان السياسة قد نسوا ويلات الحرب ورجعوا الى
اخلاق السياسة الدولية فلم تنجح تجربتها وجاءت الحرب الحاضرة
بويلاتها التي لا تطاق ، تلقاء هذه التجربة القاسية صدر ميثاق
الأطلس في أغسطس سنة ١٩٤١ .

وهنا يتساءل أنصار السلام : هل انشاء عصبة أمم جديدة
خير من عصبة الأمم القديمة يمكن أن يوصل الى الغاية النبيلة التي
أشار اليها المستر ايدن بقوله : « ان غايتنا هي انشاء نظام عالمي
يحقق التقدم السلمي لجميع الشعوب » .

العقل والتجربة متفقان على أن نظام عصبة الأمم التي لها قوة
مسلحة لتنفيذ قراراتها ليس خير أداة للسلام الدائم وبالتبع
للتعاون العالمي . لأن هذه الأداة متى كمل نظامها كانت كما يقول
المستر ألدس هكسلي « كأنها عصبة مؤلفة للحرب لا للسلام » والواقع
أن العنف يولد العنف . ومع ذلك ليس أمام العاملين من أنصار
السلام وسيلة سواها في الحال الراهنة .

غير أن هذه الوسيلة لا توصل الى الغاية الا اذا اقترن بها
أبطال الاستعمار بجميع أسمائه وألوانه . على هذا الوضع يمكن أن
تستل من نفوس الأمم الصغيرة تلك الأحقاد التي ولدها استعلاء قوم
على قوم . وذلك هو أفسد ما يكون للأخلاق التي ينبغي أن تتخلق

بها الأمم لتحقيق تعاون عالمي . وفي هذه الحالة الشعوب التي لا تستطيع أن تقوم بنفسها لا تتبع ادارة النظام العالمي الذي أشار اليه وزير الخارجية البريطانية تأخذ هذه الادارة بيدها حتى تستكمل مشخصات الأمم التي تستطيع أن تكون عضوا مستقلا نافعا في التعاون العالمي .

يجب القضاء على الاستعمار

ما دام غرض التعاون العالمي هو القضاء على نظرية حق الأقوى مع فسادها في نظر المنطق القانوني ، وما دام الاستعمار هو أظهر آثار حق الأقوى ، فلا بد للتعاون العالمي من القضاء عليه بجميع أسماؤه .

كما أن الفلسفات القديمة لم تتعرض لفكرة السلام الدائم كما ذكرت آنفا . كذلك هي لم تتعرض لفكرة استنكار الاستعمار . وأول من تعرض لها من الفلاسفة علي وجه بين هو الفيلسوف بنتام ، فانه هو وأنصار مذهبه ينعضون الاستعمار ويرونه غير نافع للأمم المستعمرة ، فوق أنه مفسد لأخلاق الأمم المستعمرة . قال برتران رسل : « اذ كانت الثورة الفرنسية في الصميم من أمرها ، كتب بنتام رسالة الى تالران عنوانها « حرروا مستعمراتكم » . ولم يكن ذلك رأي في المستعمرات الفرنسية فحسب بل رأي كذلك في المستعمرات البريطانية . وأنه حمل صديقه اللورد لندون على اعتناق مذهبه فقال في مجلس اللوردات في سنة ١٧٩٧ « لا يمكن أن يسدى الى أسبانيا خير ، أفضل من تخليصها من لعنة مستعمراتها » .

وأخيرا في عهد جمعية الأمم السابقة عرض على الأمم المستعمرة في فرض عدة أن تنزل عن مستعمراتها لتضعها تحت السيادة الدولية فرفضت كلها بلا استثناء . غير أنه ما دام على ظهرها أمم

غالبية وأمم مغلوبة ، فلا رجاء في التعاون بإخلاص . وكأني بالأمم
المغلوبة على أمرها تقول للقاهرين دعاة السلام : أنظرونا نتحلل من
ذل التبعية ثم شأكم والسلام الدائم قررنا فيه ما تشاءون .

بقي أن نشير الى أن بعض الكتاب السياسيين يرون أن
الاستعمار والوطنية أمران متلازمان . وأن من العسير أن يحب قوم
وطنهم دون أن يقترب هذا الحب بالاستعلاء على الأمم الضعيفة
أو دون أن يبغضوا غيرهم . هذا قد يكون حقا في أمر الوطنيه
العادة الجامحة التي هي من سلالة عصبية القبيلة . أما الوطنيه
المدنية أو وطنية المستقبل التي يسيطر عليها التدبر العقلي فانها
لا تتنافى مع حب الانسانية جمعاء . والواقع اننا نرى الرجل الفاضل
مع حبه لنفسه يسعى الى سعادة غيره فلا مانع اذا يمنع قوما يحبون
وطنهم ، من أن يسعوا في اسعاد الأوطان الأخرى .

التعاون العالمى ممكن

— أيها السادة : نسوق كل هذه المقدمات للوصول الى نتيجتين:
الأولى : أن التعاون العالمى ممكن متى اقترن به الغاء الاستعمار
على الوجه الذى ذكرناه .

الثانية : أن أدب السياسة الدولية الذى جرى عليه العرف
الى الآن بعيد عليه أن يحقق التعاون العالمى . بل لا بد لهذا التعاون
من أدب دولى جديد .

ونظرا لأن أسباب الحروب مهما اختلفت مردها كلها الى الحالة
البيسيكولوجية للأمم وعلى الخصوص الحالة الأخلاقية لقادة الأمم .
نظرا الى ذلك قد بحث أنصار السلام فى الوسائل التى تؤدى الى منع
الاعتداء من جانب أمة على أخرى . وان أوفى بحث أعرفه فى هذا

الصدد تلك المحاولة الجريئة الموقفة التي حاولها الكاتب المعروف
الدس هكسلي في كتابه « الغاية والوسائل » . لم يقنع هكسلي
بطريقة « كنت » التي لا يزال السياسة يسيرون عليها سواء أكان
ذلك في جمعية الأمم السابقة أم في النظام العالمي المستقبل ، بل هو
يرمى الى أعمق من ذلك أثرا وأبقى على الزمان بقاء . وهو أن يسعى
الأفراد والجماعات والحكومات الى تربية الجيل على صورة تتدرج
نتائجها للوصول الى الانسان المثالي . جعل هكسلي هذا المثل الأعلى
في الانسان الذي سماه « الانسان اللا مرتبط » في ذلك الانسان
غير المرتبط باحساساته ورغباته الجسمية غير المرتبط بشهوته في
السلطة والحيازات المختلفة . غير مرتبط بموضوعات هذه الرغبات
المختلفة ، غير مرتبط بفضبه وحقد ، غير مرتبط بحياته الخاصة ،
غير مرتبط بالثروة ولا بالمجد ولا بالوضع الاجتماعي ، غير مرتبط
حتى بالعلم وبالفن وبالتأمل المجرد وبحب الانسانية . بذلك يصل
المرء الى حياة جميع الفضائل . وأن عالما مؤلفا كله أو بجله أو على
الأقل قادته من أفراد لهم هذه الفضائل ، لجدير بأن يسمى العالم
الكامل . غير أن هكسلي لم يخدع نفسه على امكان الوصول الى تلك
الوسائل التي تربط نظريات السياسة الداخلية والسياسة الدولية
والحرب والاقتصاد والتربية والدين والأدب كل أولئك بنظرية
الطبيعة الأخيرة للحقيقة . بل قال في آخر كتابه . « لاشك أن هذه
المهمة قد نفذت على وجه ناقص . على أنني لا أعذر عن محاولتي اياها
فان رسم مذهب ولو رسما جزئيا خير من العدم الكلي .

ونحن من جانبنا نترك الى الزمان الطويل تحقيق الرغبات
الشريفة لهذا المؤلف ، ونقبل على مذهب أقرب تناولا وتقنع بالهدف
الحاضر وهو التعاون العالمي الذي ارتضته السياسة الدولية للأمم
المتحدة . فاذا ينبغي أن تكون الأخلاق لتحقيق هذا التعاون .

إذا كان هكسلي يعتد هكذا بسمو النفس الانسانية في طبيعتها الى حد أنه يرى من الممكن أن تتحقق نظرياته ، وليس في ذلك الا قريبا جدا من رأى الفيلسوف « كنت » في سمو الطبيعة الانسانية حين يقول : « ليس في الاستعدادات الطبيعية للانسان شئ من مبدأ للشر . وأن السبب الوحيد للشر هو ألا يرد الطبع الى قواعد . الا أن الانسان ليس فيه من أصل الا للخير . ليس لهذا المعنى فقط أرى أن أختار منهاج « كنت » مرجعا لصورة هذا البحث الذي أبحثه . بل أيضا لأنه صاحب فكرة الحكومة الدولية العامة . وبهذه المثابة قد يكون منهاجه الأخلاقي أقرب المناهج نسبا للتعاون العالمي . وقد يكون فوق ذلك هو المناسب لاعتقادات الناس في هذا الزمان .

لتحقيق التعاون العالمي ينبغي أن تقوم كل أمة بواجباتها نحو ذاتها وواجباتها نحو الأمم الأخرى .

فأما فضائلها الذاتية أو واجباتها نحو ذاتها فالقيام بها أظهر ما يكون في التربية وفي صور الحكم .

أما التربية فإنها في كل العصور وسيلة لتحقيق غاية معينة . فترون الدكتاتوريات تنشئ أجيالها تنشئة اسبرطية محضة لأن غايتها استكمال ما تستطيع من قوة لتيسط سلطاتها على العالم كله أو بعضه . فتجردهم من حرية التفكير الشخصي وحرية النقد وحرية الاجتماع لتبادل الآراء وتنمي في أنفسهم مبادئ القومية الحادة والاستهانة بحقوق الغير والطاعة العمياء . وبالجملـة تكون غاية التربية غاية حزبية صرفة أو بعبارة أدق غاية الاعتداء على الاغيار وما في أيديهم . وليست الديمقراطيات مع الأسف بأحسن حالا من ذلك الا قليلا . فان التربية فيها مع ما بها من الحريات الفردية

موجهة الى الحرب أيضا • وفي مثلها العليا نماذج من أبطال الحروب
الاولين والآخرين • فمناط المثل الأعلى في التربية الحاضرة بطل
قتل في ساحة الحرب من اخوانه في الانسانيه اكبر عدد ممكن •
لا شك في أن هذه التربية لا يمكن أن تكون غايتها التعاون العام
أو السلام الدائم • بل لابد للعالم ، وقد اعتزم التعاون العام ، أن
يغير غاية التربية ، فيستن نوعا من التربية يؤدي الى حب السلام
لا الى حب الحرب • يؤدي الى تحقيق الاخاء الانساني • يؤدي الى
ترك المبالغة في الاعتزاز بالأجناس وترتيبها ترتيبا تحكيميا عسى أن
يكون الجنس الأخير منها خيرا من الجنس الأول المزعوم • وبالجمله
يتبغى أن تترك الى جانب عصبية الانسان الأولى للقبيلة ولعبودها
المحلي الذي صنعه الانسان بيده ، الى ما يقتضيه الاخاء الانساني
والتعاون العالمي من احترام لجميع الأجناس وسعى في اسعاد من
قضت عليه المصادفات الشقية بأن يكون في سلم المدنية متأخرا
عن سواه •

الانسان المثقف

على هذا يجب على الأمة في تربية أبنائها أن تكون غايتها
« الانسان المثقف » ووسيلتها الى ذلك :

١ - تثقيف ملكات الفرد الطبيعية : ملكات الجسم والعقل
والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال
التام ثم بواجب الصدق الذي يسبب له الاقتناع بكرامته وواجب
السخاء الشخصي بأن لا يقتر ولا يسرف ، بل ينفق بالمعروف •
وواجب كرامته من حيث هو انسان فيرفض أن يكون تبعا لغيره في
غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا في جمعية مدنية لها

قوانين مرعية الأداء وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتي من عمل • وضابط ذلك كلمة أفلاطون المعروفة « تعرف نفسك بنفسك » أن تعرفها بالدرس الدائم لحالها وسبر غورها في أعماق طبياتها • ثم ينبغي أن يؤخذ الناشئ بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون • قال « كنت » : من ليس مثقفا فهو بهيمة • ومن ليس مؤدبا فهو متوحش •

٢ - كذلك ينبغي أن تؤخذ الأفراد في التربية بتعلم القيام بواجباتهم نحو الغير ، مثل حب الانسانية ويعنى به العدل ورعاية الغير وعرفان الجميل والسخاء والمواساة في الضراء واحترام الأغيار في أشخاصهم وشرفهم وأموالهم واحترام قوانين البلاد سرا وعلانية • وينبغي في تثقيف هذه الثلاثة الأنواع من الملكات الطبيعية أن يكون ذلك على يد أساتذة أحرار في مدارس حرة ليست تابعة مباشرة لسياسة الحكم كلما أمكن ذلك •

وأما واجبات الأمة من حيث صورة الحكم لتكميل ذاتها فينبغي أن تكون الأمة دائما مصدر السلطات في وطنها وأن يشترك أفرادها في حكمها على الطرق الديمقراطية وأن يكون الحكم فيها لمنفعة المحكومين لا لمنفعة الحكام • وأن تكون ولايات الحكم ضرائب يؤديها الأكفاء من أبنائها لا مزايا يختص بها المقربون من السلطات • ويتفرع على ذلك أن طالب التولية لا يولى •

هذا ما ينبغي من فضائل الأمة أو واجباتها نحو ذاتها •

وأما واجبات الأمم بعضها نحو بعض . فأول ما ينبغي هو
إبطال هذا المذهب العتيق للسياسة الدولية مذهب الارتياح
والدسائس والتجسس . وأن يستبدل به نقيضه بأن تحل محل
هذا المذهب الواجبات الأدبية التي يفرضها قانون الاخلاق على الفرد
نحو غيره ، وهي تتلخص في احترام حقوق الغير والسعى في اسعاده

على هذا النحو وعلى هذا النحو وحده يتحقق التعاون العالمي
وتشمل نعمة السلام كل بنى الانسان .

فهرس

٣	الفصل الأول : نشأتى الأولى
١٥	الفصل الثانى : اشتغالى بالسياسة
	الفصل الثالث : اشتغالى بالصحافة ورأى فى الخديو
٢٤	عباس
٣٣	الفصل الرابع : لورد كرومر أمام التاريخ
٤٢	الفصل الخامس : ردى على اللورد كرومر
	الفصل السادس : طالبنا بالاستقلال التام فقالوا خرجتم
٩٧	على الباب العالى
١٨	الفصل السابع : رجال عرفتهم
٨٠	الفصل الثامن : رحلتى الى أوربا وإلى المدينة المنورة
١٠٢	الفصل التاسع : مع سعد زغلول والخديو عباس
١١٢	الفصل العاشر : عرفت تولستوى وفتحى زغلول
١٢٥	الفصل الحادى عشر : موقفنا من الحرب سنة ١٩١٤
١٣٦	الفصل الثالث عشر : فى ثورة سنة ١٩١٩

- ١٤٦ . . الفصل الثالث عشر : من الجامعة الى الوزارة
- ١٥٦ . الفصل الرابع عشر : من الوزارة الى المجمع اللغوى
- الفصل الخامس عشر : الاخلاق وكيف ينبغي أن تكون
- ١٦٤ لتحقيق سلام عالمى
-

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٣ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3391 — 4

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية او فى اقتصاده او امنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن أى حرب خاضتها مصر مع اعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعمامهم التطرف : فاختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين وأقباطا .

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف وللمحاصرتهم واحتوائهم ، تمهيدا لاقتلاعهم تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب بين المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر المستنير الحق الشريف .

Bibliotheca Alexandrina



0406947

